جامعة الأزهر
كلية أصول الدين
والدعوة الإسلامية بالمنوفية



جوهر البيان
فى
وجوه إعجاز القرآن

تأليف الدكتور
أحمد سلامة أبو الفتوح صالح
أستاذ التفسير وعلوم القرآن المساعد
بكلية أصول الدين والدعوة بالمنصورة
جامعة الأزهر

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

﴿ **الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا** ﴾ [الكهف: ١]، استمعه نفر من الجن فرجعوا مبهورين وهم يقولون: ﴿ **إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا. يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا** ﴾ [الجن:١،٢]، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله – صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً –.

أما بعد: فإن مدارسة القرآن الكريم، والبحث فى أسراره، وعجائب آياته، لهى من أنفع ساعات العمر، وأكثرها متعة، لاسيما موضوعات إعجاز القرآن، فإنها تقود الباحث فيها إلى فصول من دلائل عظمة هذا القرآن وجلاله، تقف النفس المؤمنة منها خاشعة مستسلمة لعظمة منزل هذا الكتاب العزيز.

لقد خلق الله تعالى هذا الكون الرحيب، وسخر ما فيه لهذا الإنسان الذى ميزه بالنطق والبيان، وما كان هذا الإنسان ليعرف غاية وجوده، فلم يتركه خالقه سدى، وإنما بعث إليه الرسل تترا.

وما من نبى أرسله الله إلا بلسان قومه ليبين لهم، وأيده بمعجزة تكون برهاناً على صدقه فيما يبلغ عن ربه، ومن واسع رحمة الله تعالى أن جعل معجزة كل رسول من جنس ما برع فيه قومه، زيادة فى التعجيز، ومبالغة فى التحدى، وتأكيداً بأنها ليست من صنع البشر.

وحيث كانت معجزات الرسل السابقين مادية كونية محسوسة ملموسة تبهر الأبصار، ولا سبيل للعقل فى معارضتها، كمعجزة اليد والعصا لموسى (عليه السلام)، وإبراء الأكمة والأبرص وإحياء الموتى لعيسى (عليه السلام)، لكن كل معجزة ذهبت بذهاب صاحبها، من رآها فعليه أن يؤمن بها، ومن لم يحضرها لم يطالب بشئ

نحوها، إلا أنه قد ذكر القرآن شيئاً من ذلك فيجب الإيمان بما جاء فى القرآن، لا بما جاء فى غيره، أو على ألسنة غير المؤمنين مما لم يذكره القرآن أو قاله الصادق المصدوق ﷺ.

ولا يمكن لغير المسلم أن يدعى أن له معجزة الآن، إلا المسلم فإنه يفخر بمعجزته الباقية الخالدة.

وإنما أوتى محمد ﷺ معجزة خالدة باقية دون غيره من الأنبياء، لأن رسالته خالدة دائمة بدوام الدهر إلى يوم القيامة، فالقرآن قائم فى الأمة الخاتمة مقام الرسول ﷺ.

ولم يذكر التاريخ أن أمة بلغت فى الفصاحة والبيان مثل أمة العرب، تقيم الأسواق التى يتبارى فيها الشعراء والأدباء، وتمحص فيها المقالات والمعلقات والخطب والسجع والقصائد.

لما تطور العقل البشرى واكتمل، ناسب أن تكون معجزة الرسول الخاتم ﷺ عقلية، تحاج العقل البشرى، وتتحداه إلى الأبد، فالقرآن الكريم هو المعجزة العقلية الباقية التى تخاطب الأجيال فى كل عصر، يراها ويقرؤها الناس فى كل حين، أعجز الفصحاء، وانقطع أمامه البلغاء فى الأمة العربية التى سما بيانها، ولمع ذكاؤها، فهو معجزة الرسول العربى، بعلومه ومعارفه، وأخباره الماضية والمستقبلة، وحسن نظمه، وسلاسة أسلوبه... الخ.

هو المعجزة الباقية لهذا الدين وقوامه، هو معجزة هذا النبى الأمى ودليل نبوته، وعماد دعوته، نزل ليحفظ الإنسان، وينظم حركته، ويضبط منهج تفكيره، ويهديه للتى هى أقوم فى جميع شئونه، نزل لكى يكون الملجأ الحصين للإنسانية من ظلمات الجهل وشبهات الفسوق، نزل ليبقى دستوراً خالداً معجزاً للبشرية كلها، فلا صلاح للبشرية إلا بهديه، ولا كتاب بعده إلى أن يرث الله الأرض ومن

عليها، أحدث نزوله انقلاباً عظيماً لا قبل لأعدائه به، استولى على العقول، وخطف القلوب، وصرف العرب عن أسواقهم الأدبية، فأصبحوا لا شأن لهم سواه، ولا حديث لهم غيره.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ (ﷺ) قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ (ﷺ): " مَا مِنْ الأَنْبِيَاءِ نَبِيٌّ إِلا أُعْطِـيَ مَا مِثْلهُ آمَنَ عَلَيْهِ الْبَشَرُ، وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيتُ وَحْيًا أَوْحَاهُ اللَّهُ إِلَيَّ فَـأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ " (١).

فمعجزات الأنبياء السابقين انتهت بانتهاء عصورهم، فلم يعاينها إلا من حضرها، أما معجزة القرآن فهى باقية إلى يوم الدين، فهو فى كل عصر خارق للعادة في أسلوبه وبلاغته وسائر وجوه إعجازه ومنها إخباره بالمغيبات، فلا يمر عصر من الأعصار إلا ويظهر فيه شيء مما أخبر به أنه سيكون يدل على صحة دعواه، وكذلك فالمعجزات الماضية كانت حية تشاهد بالأبصار، وأما القرآن فمعجزة عقلية تشاهد بالبصيرة، فيكون من يتبعه لأجلها أكثر، لأن الذي يشاهد بعين الرأس ينقرض بانقراض مشاهده، والذي يشاهد بعين العقل باق يشاهده كل من جاء بعد الأول.

وكانت للنبى ﷺ بجانب معجزة القرآن معجزات أخرى مثل إخوانه الأنبياء، إلا أنها وقعت لمن كانوا فى عصره ﷺ فرأوها وشاهدوها وانقضت، إلا القرآن فاتسع مجال البحث فى هذه المعجزة الكبرى، واستمر الدارسون فى كشف وجوه الإعجاز منذ نزوله وحتى هذا العصر لن يدركوا منتهاه.

كيف لا، والقرآن العظيم هو منبع العلوم، ومنه تفجر أنهارها، أودع الله فيه شتى الفنون، وكل ذى فن منه يغرف ويستمد، وعليه يبنى قواعد علمه ويعتمد.

---

(١) أخرجه البخارى فى كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب قول النبى ﷺ: بعثت بجوامع الكلم ١٣/ ٢٦١ (٧٢٧٤).

فالحديث عن إعجاز القرآن ضرب من الإعجاز، لا يقف المتأمل فيه على سر حتى يرى وراءه أسراراً، وكلما تقدم العلم اكتشف ضروباً وفنوناً من الإعجاز القرآنى، ولا يزال القرآن غضاً طرياً لا تنتهى عجائبه.

قالت الدكتورة عائشة عبد الرحمن: (ومن إعجاز القرآن أن يظل مشغلة الدارسين والعلماء جيلاً بعد جيل، ثم يبقى أبداً رحب المدى سخيِّ المورد، كلما حسب جيل أنه بلغ منه الغاية امتد الأفق بعيداً وراء كل مطمح، عالياً يفوق طاقة الدارسين) (١).

وإذا كان الحديث عموماً عن القرآن وعلومه كثيراً، ومتنوعاً، ومشوقاً، وله مذاق وحلاوة، فإن الحديث عن إعجاز القرآن خاصة لهو أروع وأمتع، فهو يبرهن على أجل أوصاف القرآن وأشرفها بأنه من عند الله، وأنه حق لا ريب فيه، كما قال تعالى: ﴿ **لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ** ﴾ [فصلت: ٤٢].

ولما كان الأمر بهذه المثابة فقد صح العزم منى على كتابة هذه الورقات، لإبراز وجوه إعجاز القرآن الكريم، مساهمة منى فى هذه الجهود المباركة التى لم ينقطع مددها، ولم يتوقف تتابعها.

وحتى ينهض البحث بالمهمة التى أنيطت به، ويحقق الهدف الذى يصبو إليه، فقد قسمت الموضوع إلى مقدمة، وتمهيد، وستة مباحث، وخاتمة، على النحو التالى:

أما المقدمة: فقد تحدثت فيها عن أهمية الموضوع، وخطة الدراسة.

وأما التمهيد: فقد ضمنته خمس مسائل:

المسألة الأولى: بيان المراد بإعجاز القرآن.

المسألة الثانية: إثبات إعجاز القرآن الكريم.

---

(١) الإعجاز البيانى للقرآن الكريم صـــ١٧.

المسألة الثالثة: مراحل التحدى بالقرآن، ومقدار المعجز منه.

المسألة الرابعة: أهمية علم الإعجاز والضرورة الداعية إليه.

المسألة الخامسة: عناية العلماء بإعجاز القرآن، وأهم المؤلفات فيه.

والمبحث الأول: مناط الإعجاز فى القرآن الكريم.

والمبحث الثانى: الإعجاز اللغوى للقرآن الكريم.

والمبحث الثالث: الإعجاز النفسى " تأثير القرآن ونجاحه ".

والمبحث الرابع: الإعجاز التشريعى للقرآن الكريم.

والمبحث الخامس: الإعجاز العلمى فى القرآن الكريم.

والمبحث السادس: الإعجاز الغيبى فى القرآن الكريم.

ثم **الخاتمة** – أسأل الله تعالى حسنها –: وقد ضمنتها النتائج التى توصلت إليها، والقضايا التى عالجتها فى الدراسة.

وفى الختام أحمد الله تعالى حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه على نعمه التى لا تحصى، وأشكره شكراً كثيراً لا ينتهى على ما منّ به علىَّ، فأعاننى على إنجاز هذا البحث، وما فتح لى فيه، وأسأله جل وعلا أن يغفر لى زللى وخطأى وكل ذلك عندى.

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وسلم تسليماً كثيراً

تمهيد

وفيه **خمس** مسائل:

المسألة الأولى: بيان المراد بإعجاز القرآن.

مصطلح "إعجاز القرآن" مركب إضافى مكون من كلمتين: " إعجاز" و "القرآن"، ولبيان معنى هذا المصطلح لابد من تعريف الكلمة الأولى " إعجاز "، ثم بعد إضافتها لكلمة " القرآن " نبين المراد بالمصطلح كله.

تعريف الإعجاز:

الإعجاز: مصدر أعجز، ومادة الكلمة " العجز "، قال ابن فارس: " العين والجيم والزاى أصلان صحيحان، يدلُّ أحدُهما على الضَّعف، والآخر على مؤخَّر الشيء " [(١)]. وقال ابن منظور: " العجز نقيض الحزم، والعجز: الضعف، والمعجزة بفتح الجيم وكسرها: مفعلة من العجز: عدم القدرة، وفى الحديث " كل شئ بقدر حتى العجز والكيس" [(٢)]. وقال الليث: أَعْجَزَني فلان: إِذا عَجَزْتَ عن طلبه وإِدراكه" [(٣)].

وخلاصة كلام أهل اللغة فى ذلك أن كلمة " عجز " تطلق على:

١) الضعف وعدم القدرة على النهوض بالأمر. تقول: " عَجَزْتُ عن كذا، أَعْجِز" أى: ضعفت عنه، وسميت العجوز عجوزاً لعجزها فى كثير من الأمور، قال تعالى: ﴿ **قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا** ﴾ [هود: ٧٢].

٢) مؤخر الشئ، والجمع أعجاز، وأعجاز الأمور: أواخرها.

---

(١) انظر: معجم مقاييس اللغة، مادة " عجز ".

(٢) أخرجه مسلم فى كتاب القدر، باب: كل شئ بقدر ٤ /٢٠٤٥ (٢٦٥٥).

(٣) انظر: لسان العرب، مادة (عجز).

وصار في التعارف: اسم للقصور عن فعل الشيء وهو ضد القدرة، قال تعالى: ﴿ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ ﴾ [المائدة: ٣١] (١).

المراد بـ " إعجاز القرآن الكريم ":

للعلماء فى تعريف الإعجاز أقوال تختلف ألفاظها وتتحد معانيها، منها:

تعريف القاضى عبد الجبار أن معناه: " أنه يتعذر على المتقدمين في الفصاحة فعل مثله، في القدر الذي اختص به " (٢).

ويمكن تعريفه بأنه: عجز المخاطبين بالقرآن وقت نزوله ومن بعدهم إلى يوم القيامة عن الإتيان بمثل هذا القرآن، مع تمكّنهم من البيان، وتملّكهم لأسباب الفصاحة والبلاغة، وتوفّر الدواعي، واستمرار البواعث (٣).

(ويكتمل بيان المراد بهذا المصطلح إذا عرفنا أن إعجاز القرآن مَن تحداهم عن الإتيان بمثله أو بشيء من مثله ليس أمراً مقصوداً لذاته، وليس هو الغاية في نفسه، ولكن المقصود هو اللازم الناتج عن هذا الإعجاز، وهو إثبات أن هذا الكتاب حق، ووحي من عند الله تعالى، ومقتضى ذلك كله إثبات صدق الرسول ﷺ فيما جاء به قومه من الرسالة، ودعاهم إليه من الإسلام، وعليه؛ فإن حقيقة الإعجاز وهى إثبات العجز لمن وقع عليه التحدي استلزمت إظهار هذا العجز، وهذا الإظهار بدوره استلزم إظهار صدق رسول الله ﷺ، وهو المقصود الأول من الإعجاز) (٤).

---

(١) انظر: معجم مقاييس اللغة صـــ٧٣٨، ولسان العرب لابن منظور ٣٦٩/٥، والمفردات للراغب صـــ٣٢٥، ودراسات فى علوم القرآن، د / فهد الرومى صـــ٢٥٦.

(٢) المغنى فى أبواب التوحيد والعدل (إعجاز القرآن) ١٦ / ٢٢٦.

(٣) دراسات فى علوم القرآن، د / فهد الرومى صـــ٢٦٢.

(٤) عناية المسلمين بإبراز وجوه الإعجاز فى القرآن صـــ٢٤٦، ومناهل العرفان ٢ / ٣٣١.

المسألة الثانية: إثبات إعجاز القرآن الكريم.

حين نزل القرآن الكريم لم ينزل بما يوافق معتقدات الجاهلية أو يداريها، بل نزل هادمًا لها، مبطلاً لأصولها، منكرًا لمبادئها، وأهلها أهل جاهلية، أهل عناد وطغيان، أهل أنفة وعزة، لو كان عندهم أدنى قدرة على معارضة القرآن أو الإتيان بمثله -وقد تحداهم واستثارهم- لذلك ما ترددوا، ولكنهم يعلمون من فورهم أن بينهم وبين ذلك بُعد ما بين السموات والأرضين.

عجزوا وهم أهل اللغة وأهل البيان (أجل، لقد سجل التاريخ هذا العجز على أهل اللغة أنفسهم في عصر نزول القرآن. وما أدراك ما عصر نزول القرآن ؟ هو أزهى عصور البيان العربي، وأرقى أدوار التهذيب اللغوي) (١).

(جمعوا الحشود في الصحراء، ورفعوا المنابر في الأسواق، وعرضوا فيها أنفس بضائعهم، وأجود صناعاتهم، وما البضاعة إلا بضاعة الكلام، وما الصناعة إلا صناعة الشعر والخطابة، يتبارون في عرضها، ويتنافسون في نقدها، فما هو إلا أن جاء القرآن.. وإذا الأسواق قد انفضت إلا منه، وإذا الأندية قد صفرت إلا عنه، فما قدر أحد منهم أن يباريه أو يجاريه) (٢) رجعوا البصر علهم يجدون فيه فجوة ينفذون منها فعاد إليهم البصر خاسئًا وهو حسير.

(ولم يسد القرآن عليهم باب المعارضة بل فتحه على مصراعيه، فدعاهم إليه أفرادًا أو جماعات. بل تحداهم وكرر عليهم ذلك التحدي في صور شتى، متهكمًا بهم، متنزلاً معهم إلى الأخف فالأخف...، وأباح لهم في كل مرة أن يستعينوا بمن شاءوا ومن استطاعوا، ثم رماهم والعالم كله بالعجز في غير مواربة فقال: ﴿ **قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ**

---

(١) النبأ العظيم، د / عبد الله دراز صـ٨٣.

(٢) المرجع السابق صـ٨٣، ٨٤.

كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ [الإسراء: ٨٨] وقال: ﴿ **فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ** ﴾ [البقرة: ٢٤] فانظر أي إلهاب!! وأي استفزاز، لقد أجهز عليهم بالحكم البات المؤبد في قوله: ﴿ **وَلَنْ تَفْعَلُوا** ﴾ ثم هددهم بالنار، ثم سواهم بالأحجار، فوالله لو كان فيهم لسان يتحرك، لما صمتوا عن منافسته، وهم الأعداء الألداء وأباة الضيم الأعزاء، وقد أصاب منهم موضع عزتهم وفخارهم، ولكنهم لم يجدوا ثغرة ينفذون منها إلى معارضته، ولا سلمًا يصعدون به إلى مزاحمته، بل وجدوا أنفسهم منه أمام طود شامخ، فما اسطاعوا أن يظهروه، وما استطاعوا له نقبًا... حتى إذا استيأسوا من قدرتهم واستيقنوا عجزهم ما كان جوابهم: إلا أن ركبوا متن الحتوف، واستنطقوا السيوف بدل الحروف، وتلك هي الحيلة التي يلجأ إليها كل مغلوب في الحجة والبرهان، وكل من لا يستطيع دفعًا عن نفسه بالقلم واللسان) (١).

(سلكوا مع الرسول ﷺ كل سبيل للتوقف عن دعوته، ساوموه بالمال، وعرضوا عليه الملك، وقاطعوه ومن معه حتى يموتوا جوعًا، وتآمروا على قتله، وأخرجوه من بلده، وسلكوا أصعب الطرق، وأعرضوا كل الإعراض عن الطريق الوحيد الذي عرضه عليهم الرسول ﷺ لإبطال دعوته، وهو أن يأتوا بمثل هذا القرآن، فوجدوا أن كل سبيل أهون من هذا السبيل، وكل مشقة دون هذا المطلب، فأي شيء يكون العجز إن لم يكن هذا هو العجز كل العجز) (٢).

---

(١) المرجع السابق صـــ٨٤، ٨٥.

(٢) المرجع السابق صـــ٨٧، وانظر: دراسات فى علوم القرآن، د / الرومى صـــ٢٦٣، ٢٦٤.

ولو أثر عنهم معارضة للقرآن الكريم، أو محاولة جادة، لتطاير خبرها في الأجيال، ولتداولتها الألسن، وسطرتها الأقلام، ولكن ذلك لم ولن يكون ما دام هناك مسكة من عقل، أو ذرة من كرامة.

والتحدي في القرآن الكريم ليس خاصًّا بأمة دون أمة، أو عصر دون عصر، بل هو باق ما بقى القرآن يعلن للناس تحديه، فقوله عز شأنه: ﴿ **قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا** ﴾ [الإسراء: ٨٨] عام يشمل جميع الإنس في جميع العصور.

ولأن القرآن خاتم الكتب، والرسول ﷺ خاتم الرسل، والإسلام خاتم الأديان، فقد اقتضت الحكمة بقاء المعجزة لتكون شاهدة على كل جيل، كما هي شاهدة على الجيل الأول.

ولئن عجز الجيل الأول وهم أهل الفصاحة والبلاغة، وأهل البيان والبديع، عن الإتيان بمثل هذا القرآن أو بعضه، أو مجرد محاولة ذلك، لعلمهم سلفًا بعجزهم عن ذلك، فإن مَنْ بعدهم أعجز وأبعد عن الاستطاعة، فالإعجاز مستمر، والتحدي قائم إلى يوم القيامة.

المسألة الثالثة: مراحل التحدي بالقرآن، ومقدار المعجز منه.

ورد التحدي بالقرآن الكريم في خمس آيات من خمس سور، هي على ترتيب السور:

١) في سورة البقرة: الآية ٢٣ ﴿ **وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ** ﴾ الآية..

٢) في سورة يونس: الآية ٣٨ ﴿ **أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ** ﴾ الآية.

٣) سورة هود: الآية ١٣ ﴿ **أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ** ﴾.

٤) سورة الإسراء: الآية ٨٨ ﴿ **قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا** ﴾.

٥) سورة الطور: الآية ٣٣،٣٤ ﴿ **أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَلْ لا يُؤْمِنُونَ. فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ** ﴾.

والتحدي في هذه الآيات جاء مرة بالإتيان بمثل القرآن كله، ومرة بعشر سور، ومرة بسورة، ومرة بحديث مثله. فهل جاء التحدي بالقرآن متدرجًا من الأكثر إلى الأقل أم لا ؟

للعلماء في مراحل التحدي بالقرآن الكريم أقوال:

القول الأول: وهو قول جمهور علماء التفسير والبلاغة أن التحدي كان متدرجًا بالقرآن كله كما في سورة الإسراء والطور، ثم تحداهم بعشر سور في سورة هود، ثم تحداهم بسورة فى سورة يونس، ثم بسورة من مثله في سورة البقرة.

ولكن هذا القول لا يساعد عليه ترتيب نزول القرآن الكريم.

لأن أول هذه الآيات نزولاً آية الإسراء، وثانيها: آية يونس، وثالثها: آية هود، ويرى بعض المفسرين أن آية هود نزلت قبل آية يونس، ورابعها: آية الطور وكلها مكى، ثم نزل، خامسها: آية البقرة فى المدينة [1].

القول الثاني: رتب آيات التحدي ترتيب نزول وأنه كان متدرجًا أيضًا، إلا أن التحدي بسورة وقع قبل التحدي بعشر سور.

---

(١) انظر: البرهان للزركشى ١ / ١٩٣، والإتقان للسيوطى ١ / ٢٧.

القول الثالث: وهو ما أرى رجحانه أن القولين السابقين قاما على تصور أن الإتيان بمثل القرآن أصعب من الإتيان بمثل عشر سور، وأن الإتيان بالعشر أصعب من الإتيان بسورة، وهذا غير صحيح. لأن القرآن كله قليله وكثيره على حد سواء في الإعجاز، فليس الإتيان بسورة أسهل من الإتيان بالقرآن كله، فالتحدي في القرآن بالكيف لا بالكم، وبالنوع لا بالمقدار، فلا يهم إذًا أن يكون التحدي بسورة جاء قبل التحدي بعشر سور أو قبل التحدي بالقرآن كله.

واستحالة المجيء بمثل سورة من القرآن كاستحالة المجيء بعشر سور، واستحالة المجيء بمثل القرآن كله على حدٍّ سواء، فكل ذلك متعذر، ولذا فلا أثر للاختلاف في ترتيب آيات التحدي ما دام لا يترتب عليه أثر في قوة التحدي، والعجز كان عن الإتيان بجنس القرآن لا عن مقداره.

ومما يتصل بالحديث عن مراحل التحدى بالقرآن، الحديث عن القدر المعجز منه، فقد وقع في هذا القدر خلاف أيضًا على أقوال هي:

القول الأول: أن الإعجاز متعلق بجميع القرآن لا ببعضه. وهذا القول مردود بالآيات التي تتحدى بعشر سور وبسورة واحدة أو حديث مثله.

القول الثاني: أن الإعجاز متعلق بسورة تامة طويلة أو قصيرة، وهذا رأي الجمهور، وزاد بعضهم أنه يتعلق أيضًا بقدر سورة تامة من الكلام [1]، بحيث يظهر به تفاضل قوى البلاغة، وأقصر سورة في القرآن هي سورة الكوثر ثلاث آيات، فيكون مقدار هذه السورة من الآيات معجز.

القول الثالث: أن الإعجاز يتعلق بقليل القرآن وكثيره لقوله تعالى: ﴿ **فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ** ﴾ [الطور: ٣٤] والتحدي بجنس القرآن

---

(١) انظر: إعجاز القرآن للباقلانى صــ٢٦١.

لا بالمقدار، فكل آية من آيه تعد فى قمة البلاغة، ومنتهى الجزالة، وفى غاية الإعجاز، وهذا ما نرجحه، والله أعلم [1].

المسألة الرابعة: أهمية علم الإعجاز والضرورة الداعية إليه.

من بداهة القول: أن الله تعالى أنزل القرآن الكريم على رسوله ﷺ هداية للناس في شتى مناحي حياتهم إلى أقوم طريق وأهدى سبيل، وذلك مما ينبئ عنه حذف متعلق الهداية في قول الله تعالى: ﴿ **إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا** ﴾ [الإسراء: ٩].

بل إن هذا الهدف الأعظم هو أول ما يطالع القارئ لكتاب الله تعالى مفتتح المصحف في أول سورة منه بعد الفاتحة ﴿ **الم. ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ** ﴾ [البقرة: ١، ٢].

ومن المعلوم أن الاهتداء بالقرآن فرع عن فهم معانيه، وطريق ذلك علم التفسير، ومعرفة ما فيه من الناسخ والمنسوخ، والعام والخاص، والمحكم والمتشابه، والحلال والحرام وغير ذلك [2].

ولذا عرف الزركشي التفسير بقوله: (هو علم نزول الآية وسورتها وأقاصيصها، والإشارات النازلة فيها، ثم ترتيب مكيها ومدنيها، ومحكمها ومتشابهها، وناسخها ومنسوخها، وخاصها وعامها، ومطلقها ومقيدها، ومجملها ومفسرها.. وزاد فيها قوم فقالوا: علم حلالها وحرامها، ووعدها ووعيدها، وأمرها ونهيها، وعبرها وأمثالها) [3].

---

(١) انظر: دراسات فى علوم القرآن، د/الرومى صـ٢٧٠، والجواهر الحسان، د/صبرة صـ٦٢.

(٢) انظر: عناية المسلمين بإبراز وجوه الإعجاز فى القرآن، د / جبريل صـ٢٤٧.

(٣) البرهان فى علوم القرآن ١٤٨/٢.

وأجمل الزرقانى ما فصله الزركشى مبيناً الغاية المرجوة من علم التفسير فقال: (هو علم يبحث فيه عن القرآن الكريم من حيث دلالته على مراد الله تعالى بقدر الطاقة البشرية) (١) وذلك لمعرفة كيفية الانقياد لأمر الله تعالى فيما أنــزله على رسوله ﷺ (٢).

وإذا كان الله جل جلاله قد أنزل القرآن بلسان عربى مبين، فإن تفسيره لابد أن يقوم على معرفة باللغة العربية التى أنزل بها، ودراية بخصائصها، وأوجه بلاغتها، ودلالات ألفاظها.

ولذلك يذهب ابن عاشور إلى: (أن مفسر القرآن لا يعد تفسيره لمعاني القرآن بالغا حدّ الكمال في غرضه ما لم يكن مشتملاً على بيان دقائق من وجوه البلاغة في آيه المفسَّرة، بمقدار ما تسمو إليه الهمة من تطويل واختصار، فالمفسر بحاجة إلى بيان ما في آي القرآن من طرق الاستعمال العربي، وخصائص بلاغته) (٣).

ثم ينحي ابن عاشور باللائمة على من لم يجعل ذلك في التفسير له غرضا، فيقول: (فمن أعجب ما نراه خلو معظم التفاسير عن الاهتمام بالوصول إلى هذا الغرض الأسمى إلا عيون التفاسير، فمن مقل مثل معاني القرآن لأبي إسحاق الزجاج، والمحرر الوجيز للشيخ عبد الحق بن عطية الأندلسي، ومن مكثر مثل الكشاف، ولا يعذر في الخلو عن ذلك إلا التفاسير التي نحت ناحية خاصة من معاني القرآن مثل أحكام القرآن، على أن بعض أهل الهمم العالية من أصحاب هذه التفاسير لم يهمل هذا العلق النفيس، كما يصف بعض العلماء كتاب أحكام القرآن

---

(١) مناهل العرفان فى علوم القرآن ٢ / ٣.

(٢) عناية المسلمين، د / محمد جبريل صــ٢٤٨.

(٣) التحرير والتنوير ١ / ١٠٢.

لإسماعيل بن إسحاق بن حماد المالكي البغدادي، وكما نراه في مواضع من أحكام القرآن لأبي بكر بن العربي....

ثم إن العناية بما نحن بصدده من بيان وجوه إعجاز القرآن إنما نبعت من مختزن أصل كبير من أصول الإسلام، وهو كونه المعجزة الكبرى للنبي ﷺ، وكونه المعجزة الباقية) (١).

(وإذا كان كلام صاحب التحرير مبنياً على رؤية التلازم بين معرفة علوم العربية وفهم معاني القرآن الذي يعيّن طريقاً للاهتداء به، فإن هذا الاهتداء فرع آخر بل ونتيجة لتلك الدراسة التي تؤكد على إعجاز القرآن، ذلك أنا نرى أن هناك ترابطا لا ينفك بين النص المعجز والمعنى الشامل لسبل الهداية كلها، هذا الترابط يمكن وصفه – إن صح التعبير – بأنه ترابط ما بين المقدمات والنتائج، فغرض الإعجاز مقدمة نتيجته الهداية، أو إن شئت فقل: إن غرض الإعجاز أمر يسبق في التقرير غرض الهداية، لأن الناس إذا دعوا إلى العمل بمنهج ما فلا بد من قناعتهم بسلامة مصدر هذا المنهج حتى ينقادوا له عن طمأنينة، والإعجاز – في هذا المجال– قد أدى الغرض فأوفى، فبه عرف أن القرآن كلام رب الناس وخالقهم، والأعلم بما يصلح لهم ويُصلحهم، ناهيك عن إعجاز ما تضمنه القرآن في مجال الهداية كذلك من سمو تشريعه، وعلو دعوته) (٢).

وهذا الكلام يؤكد أن العناية بإبراز وجوه إعجاز القرآن من أكثر الأمور ضرورة، وهذا الأمر تنبه له العلماء قديماً وحديثاً.

قال الباقلانى: (ومن أهم ما يجب على أهل دين الله كشفه، وأولى ما يلزم بحثه، ما كان لأصل دينهم قواما، ولقاعدة توحيدهم عماداً ونظاماً، وعلى صدق نبيهم ﷺ

---

(١) المصدر السابق.

(٢) عناية المسلمين، د / محمد جبريل صـــ٢٥٠.

برهانا، ولمعجزته ثبتا وحجة، لاسيما والجهل ممدود الرواق، شديد النفاق، مستول على الآفاق، والعلم إلى عفاء ودروس...

وقد كان يجوز ممن عمل الكتب النافعة في معاني القرآن، وتكلم في فوائده من أهل صنعة العربية وغيرهم من أهل صناعة الكلام أن يبسطوا القول في الإبانة عن وجه معجزته والدلالة على مكانه، فهو أحق بكثير مما صنفوا فيه: من القول في الجزء، ودقيق الكلام في الأغراض، وكثير من بديع الإعراب، وغامض النحو، فالحاجة إلى هذا أمس، والاشتغال به أوجب) [١].

لقد منَّ الله تعالى على علماء الأمة بحفظ هذا العلم، فأولت إعجاز القرآن وبيانه للناس اهتمامها، وتتابعت في ذلك المصنفات، وظلت ترى مع ذلك أن الكلام في إعجاز القرآن واجب لا يسع الأمة في مجملها تركه.

قال السيد رشيد رضا: (فالكلام في وجوه إعجاز القرآن واجب شرعاً، وهو من فروض الكفاية، وقد تكلم فيه المفسرون، وبلغاء الأدباء والمتأنقون) [٢].

وما زال العلماء والأدباء من بعد رشيد رضا والرافعي يعنون بالقرآن الكريم من جهة إعجازه، وسيظلون على ذلك بعون الله تعالى خدمة لهذا الكتاب الكريم، الذي شرفنا الله تعالى بالانتساب إليه، ومنّ علينا بالاهتداء به: ﴿ **وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ** ﴾ [الزخرف: ٤٤].

المسألة الخامسة: عناية العلماء بإعجاز القرآن، وأهم المؤلفات فيه [٣].

---

(١) انظر: إعجاز القرآن صــ٢٢، ٢٣.

(٢) انظر: مقدمته لكتاب إعجاز القرآن للرافعى صــ٢٠.

(٣) انظر فى ذلك: عناية المسلمين، د/جبريل صــ٢٦٢ وما بعدها، ودراسات فى علوم القرآن، د/ الرومى صــ٢٦٥ وما بعدها، والجواهر الحسان، د / صبيرة صــ٥٨ وما بعدها.

كان للعلماء (رحمهم الله) تعالى عناية كبيرة واهتمام عظيم بإعجاز القرآن الكريم، ولاهتمامهم هذا مظهران:

الأول: أن العلماء أفردوا إعجاز القرآن بمؤلفات مستقلة، وخصوه بالبحث والدراسة، حيث إنهم لمسوا شدة الحاجة إلى معرفته.

الثاني: من العلماء من أفرد إعجاز القرآن بباب مستقل من أبواب مؤلفاتهم سواءٌ أكانت فى علوم القرآن أم فى غيره من الفنون، ومن المفسرين من تناوله فى مقدمة تفاسيرهم.

وإليك أهم المؤلفات فى كل مظهر من المظهرين:

أولاً: المؤلفات التى أفردت لدراسة إعجاز القرآن:

(١) (نظم القرآن) لأبى عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (ت٢٥٥هـ)، وهو كتاب مفقود، وإنما أشار إليه الجاحظ نفسه فى مؤلفاته الأخرى، وكذا أشار غيره إلى أنه من مؤلفات الجاحظ.

تقول الدكتورة عائشة عبد الرحمن: (في القرن الثالث ظهرت كتب في الإعجاز تحمل في الغالب عنوان " نظم القرآن "، وللجاحظ كتاب بهذا الاسم لم يصل إلينا، وإن كان الجاحظ أشار إليه في كتابه "الحجج ") [١].

وقبلها أشار الباقلانى إليه، قال: (وقد صنف الجاحظ في "نظم القرآن " كتاباً لم يزد فيه على ما قاله المتكلمون قبله، ولم يكشف عما يلتبس في أكثر هذا المعنى) [٢].

وقد اختلفت الأنظار في حقيقة رأى الجاحظ في إعجاز القرآن، فالبعض يرى أن تلمذته للنظام أثرت في مذهبه في الإعجاز، وأنه تابعه في القول بالصرفة وإن لم يصرح بذلك.

---

(١) الإعجاز البيانى للقرآن صـ١٩.

(٢) إعجاز القرآن صـ٢٤.

قال الدكتور العمري: (وجاء الجاحظ وعملا بمبدأ الالتزام الأدبي النقلي تابع أستاذه النظام، وإن كان لم يذكر ذلك صراحة في بادئ الأمر، ولكنه تحفظ نوعاً، ولعل تحفظه أن يصرح علانية بموافقته على رأي النظام كان نتيجة لردود الفعل التي أحدثها رأي النظام في المجتمع الإسلامي خاصة عند جماعة السلف، فلم يرد الجاحظ أن يكون هو الآخر هدفاً لهذا التيار الجارف الذي تعرض له أستاذه.. لذلك نراه يدور حوله أول الأمر، لكنه لا يعلنه صراحة) (١).

بينما يرى الشيخ أبو زهرة غير ذلك فيقول: (وإن أول ما كتب في إعجاز القرآن من ناحية البيان كان في الوقت الذي جاء فيه القول بالصرفة بين نفي وإثبات، وأول من عرف أنه تصدى للكلام في الإعجاز في نظم القرآن هو الجاحظ تلميذ النظام الذي أنكر عليه قوله، وعابه في منهاجه الفكري من أنه يظن الظن، ثم يجعله أصلا يجرى عليه القياس مصححاً لقياسه بالمنطق، والعيب في أصل القول الذي بنى عليه، لا في الأقيسة التي أجرى بها مشابهاته) (٢).

وعلى كلٍ، فإنه حتى لو صح كلام القائلين بإضمار الجاحظ للقول بالصرفة وميله إليه فإن ذلك لا يغض من كونه أول من نهض لإبراز الإعجاز القرآني في نظمه وعرض بلاغة القرآن في آياته، في الإيجاز والحذف والزوائد والفصول والاستعارات، وجمع المعاني الكثيرة في الألفاظ القليلة إلى آخره، وقوله عن القرآن بصفة عامة: " وفي كتابنا المنزل الذي يدل على أنه صدق: نظمه البديع الذي لا يقدر على مثله العباد، مع ما سوى ذلك من الدلائل التي جاء بها من جاء به " (٣).

---

(١) مفهوم الإعجاز القرآنى حتى القرن السادس الهجرى صـــ٤٩.

(٢) انظر: المعجزة الكبرى صـــ٦٢، ٦٣.

(٣) الحيوان ٤ / ٨٥، وانظر: إعجاز القرآن للرافعى صـــ١٥١.

(٢) (إعجاز القرآن في نظمه وتأليفه) لأبى عبد الله محمد بن يزيد الواسطي (ت ٣٠٦هـ) وفيه يقول الرافعي: (بيد أن أول كتاب وضع لشرح الإعجاز وبسط القول فيه على طريقتهم في التأليف إنما هو فيما نعلم كتاب "إعجاز القرآن" لأبى عبد الله محمد بن يزيد الواسطي) [١].

(٣) (النكت في إعجاز القرآن) لأبى الحسن على بن عيسى الرماني (ت ٣٨٦هـ) وهى رسالة مختصرة جاءت جواباً لسؤال عن ذكر النكت فى إعجاز القرآن دون التطويل والحجاج، وتقع فى سبع وثلاثين صفحة، طبعت ضمن ثلاث رسائل فى إعجاز القرآن.

(٤) (بيان إعجاز القرآن) لأبى سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم الخطابي (ت ٣٨٨هـ) وهو رسالة مختصرة تقع فى سبع وأربعين صفحة، وطبعت ضمن ثلاث رسائل فى إعجاز القرآن.

(٥) (إعجاز القرآن) لأبى بكر محمد بن الطيب الباقلاني (ت٤٠٣هـ) والباقلانى من أشهر من كتب فى إعجاز القرآن، وانتشرت كتبه، وقال فى سبب تأليفه: (وسألنا سائل أن نذكر جملة من القول جامعة: تسقط الشبهات، وتزيل الشكوك التي تعرض للجهال، وتنتهي إلى ما يخطر لهم، ويعرض لأفهامهم، فأجبناه إلى ذلك متقربين إلى الله (ﷻ)، ومتوكلين عليه، وعلى حسن توفيقه ومعونته) [٢].

(٦، ٧) (الرسالة الشافية فى إعجاز القرآن) و (دلائل الإعجاز) كلاهما لأبي بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجاني (ت٤٧١هـ)، أما (الرسالة الشافية) فهي رسالة موجزة لكنها شاملة، قرر فيها أن الإعجاز ثابت عن طريق

---

(١) إعجاز القرآن صـ١٥٢.

(٢) إعجاز القرآن للباقلانى صـ٢٤، ٢٥.

عجز العرب عن معارضة القرآن، وقرر أن العبرة بعجز العرب المعاصرين لنزوله دون المتأخرين عن زمانه، ورد على القول بالصرفة، وركز فيها على موقف العرب المعاصرين لنزول القرآن من أمثال الوليد بن المغيرة، وعتبة بن ربيعة وغيرهما ممن أقروا راغمين أن القرآن ليس من كلام البشر، وتقع في حوالي ٤٠ صفحة، وطبعت ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن.

وأما (دلائل الإعجاز) فقد كشف فيه عن وجوه إعجاز القرآن كما رآها، وأنها فى بلاغته وفصاحته، قال: (أعجزتهم مزايا ظهرت لهم في نظمه، وخصائص صادفوها في سياق لفظه، وبدائع راعتهم من مبادئ آيه ومقاطعها، ومجاري ألفاظها ومواقعها) (١). ورد فيها على من قال بالصرفة.

(٨) (نهاية الإيجاز فى دراية الإعجاز) لأبى عبد الله فخر الدين الرازى (ت ٦٠٦هـ) اختصر فيه كتابى (دلائل الإعجاز) و (أسرار البلاغة) لعبد القاهر الجرجانى، وزاد فيه بعض الفوائد.

(٩، ١٠) (البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن) و (التبيان فى علم البيان المطلع على إعجاز القرآن) وكلاهما لعبد الواحد الزملكانى (ت٦٥١هـ).

(١١) (معترك الأقران فى إعجاز القرآن) لجلال الدين عبد الرحمن بن أبى بكر السيوطى (ت ٩١١هـ) وهو مطبوع فى ثلاثة مجلدات.

(١٢) (إعجاز القرآن والبلاغة النبوية) للأستاذ مصطفي صادق الرافعي (ت ١٣٥٦ هـ) وهو بحق من أفضل المؤلفات فى موضوعه قديماً وحديثاً، وقد طبع عدة مرات، تكلم فيه على معنى الإعجاز ومذاهب القدماء فيه، ومؤلفاتهم في فنه، ثم تكلم على حقيقة الإعجاز، واشتدت وطأته على القائلين بالصرفة، كما نقد كثيراً من العلماء الذين ألفوا في الإعجاز مثل المرتضى من الشيعة، ففي أول

---

(١) دلائل الإعجاز صـ٣٩.

كلامه يحدد مفهومه للإعجاز فيقول: (وإنما الإعجاز شيئان: ضعف القدرة الإنسانية في محاولة المعجزة ومزاولته على شدة الإنسان واتصال عنايته، ثم استمرار هذا الضعف على تراخي الزمن وتقدمه، فكأن العالم كله في العجز إنسان واحد ليس له غير مدته المحدودة بالغة ما بلغت) (١).

أما وجه الإعجاز الذي يرتضيه فيبينه بقوله: (أما الذي عندنا في وجه إعجاز القرآن وما حققناه بعد البحث، وانتهينا إليه بالتأمل وتصفح الآراء وإطالة الفكر، وإنضاج الروية، وما استخرجناه من القرآن نفسه في نظمه ووجه تركيبه، واطراد أسلوبه، ثم ما تعاطيناه لذلك من التنظير والمقابلة، واكتناه الروح التاريخية في أوضاع الإنسان، وآثاره وما نتج لنا من تتبع كلام البلغاء في الأغراض التي يقصد إليها، والجهات التي يعمل عليها، وفي رد وجوه البلاغة إلى أسرار الوضع اللغوي، التي مرجعها إلى الإبانة عن حياة المعنى بتركيب حي من الألفاظ يطابق سنن الحياة، في دقة التأليف، وإحكام الوضع، وجمال التصوير، وشدة الملاءمة) (٢).

(١٣) (النبأ العظيم) للدكتور محمد عبد الله دراز (ت ١٣٧٧هـ) وهو كتاب فى الإعجاز اللغوى للقرآن الكريم، أحد ثلاثة أنواع من الإعجاز وعد المؤلف بالكتابة عنها، فأتم الأول وتوفى قبل تمام الباقى، وامتاز بأسلوبه الأدبى المميز، ودقة استنباطه، وسلاسة لفظه، وطبع أكثر من مرة.

ثم توالى التأليف فى إعجاز القرآن الكريم، مثل (إشارات الإعجاز فى مظان الإيجاز) لبديع الزمان النورسى، و (المعجزة الكبرى) للشيخ محمد أبو زهرة، و (الإعجاز البيانى للقرآن الكريم) للدكتورة عائشة عبد الرحمن، و (مباحث فى

(١) انظر: إعجاز القرآن للرافعى صـ١٣٩.

(٢) المرجع السابق صـ١٥٦.

إعجاز القرآن) للدكتور مصطفى مسلم، و (فكرة إعجاز القرآن) لنعيم الحمصى، و (البيان فى إعجاز القرآن) للدكتور صلاح الخالدى، إلى جانب العشرات من الرسائل العلمية الجامعية التى تتناول إعجاز القرآن فى جوانبه المختلفة.

ثانياً: المؤلفات التى تناولت إعجاز القرآن كباب من أبوابها، أو جزء من مقدماتها.

(١) (المغنى فى أبواب العدل والتوحيد) للقاضى عبد الجبار أحمد بن خليل بن عبد الله (ت٤١٥هـ)، والكتاب يقع فى عشرين جزءاً، أفرد القاضى واحداً من هذه الأجزاء للحديث عن إعجاز القرآن، وهو الجزء السادس عشر (وهو في هذا الجزء لا يلقى الإعجاز لقاءً مباشراً، بل يقدم له بمباحث كثيرة تستنفذ الجزء الأكبر من هذا الكتاب، فهو يقرر أولاً صحة القرآن وتواتر نقله، والدواعي التي تقوم لهذا التواتر وتتضافر على الاحتفاظ به كاملاً بعيداً من أي تحريف أو تبديل... ثم يتعرض للإعجاز، وينصب موازين البلاغة ليقيم بها الكلام البليغ) [1].

---

(١) بلاغة القرآن في آثار القاضي عبد الجبار، وأثره في الدراسات البلاغية، د /عبد الفتاح لاشين صـ ٤٦٦، وأحب أن أشير أن للمعتزلة عناية خاصة بالقرآن، ولعل عنايتهم تلك نتيجة عدم اعتمادهم فى إثبات نبوة محمد ﷺ إلا على معجزة القرآن دون سواها من المعجزات، يقول الهمداني : " لم يعتمد شيوخنا في إثبات نبوة محمد ﷺ على المعجزات [المغنى فى أبواب التوحيد ١٦ / ١٥٢].. ويقول عن المعجزات: "فلا يصح أن يستدل بها على صحة النبوة، ولذلك اعتمد شيوخنا في تثبيت نبوة محمد ﷺ على القرآن" [السابق] ويوضح هذا الأمر فيقول: " إن شيوخنا أثبتوها معجزة ودلالة، لكنهم لم يجوزوا الاعتماد عليها في مكالمة المخالفين " [المرجع السابق] ولهذا كثرت مؤلفاتهم في إعجاز القرآن وبلاغته ومناظراتهم ومجادلاتهم وشطحاتهم.

(٢) (الفصل فى الملل والأهواء والنحل) لأبى محمد على بن أحمد بن حزم الظاهرى (ت٤٥٦هـ) وقد أفرد ابن حزم فصلاً من الجزء الثالث للحديث عن وجوه الإعجاز باختصار.

(٣) (الشفا بتعريف حقوق المصطفى) للقاضى عياض بن موسى اليحصبى (ت٥٤٤هـ)، وأفرد القاضى عياض فصلاً فى الجزء الأول للحديث عن إعجاز القرآن، بدأه بقوله: (اعلم وفقنا الله وإياك أن كتاب الله العزيز منطو على وجوه من الإعجاز كثيرة، وتحصيلها من جهة ضبط أنواعها في أربعة وجوه:أولها حسن تأليفه، والتئام كلمه، وفصاحته، ووجوه إيجازه، وبلاغته الخارقة عادة العرب) [١].

ثم عرض لبقية وجوه الإعجاز فعّد منها: صورة نظمه العجيب وأسلوبه الغريب، وما انطوى عليه من الإخبار بالمغيبات، وما أنبأ به من أخبار القرون السابقة، والأمم البائدة، والشرائع الدائرة إلى أن قال:(هذه الوجوه الأربعة بينة لا نزاع فيها ولا مرية) [٢].

ثم عرض بعد ذلك لوجوه أخرى إجمالاً فقال: (وقد عدّ جماعة من الأئمة ومقلدي الأمة في إعجازه وجوها كثيرة، منها: أن قارئه لا يمله، وسامعه لا يمجه، بل الإكباب على تلاوته يزيده حلاوة، وترديده يوجب له محبه، ولا يزال غضاً طرياً، وغيره من الكلام ولو بلغ في الحسن والبلاغة مبلغه يمل مع الترديد، ويُعادى إذا أعيد، وكتابنا يستلذ به في الخلوات، ويؤنس بتلاوته في الأزمات) [٣].

---

(١) الشفا بتعريف حقوق المصطفى ١ / ٢١٧.

(٢) المصدر السابق ١ / ٢٢٩.

(٣) المصدر السابق ١ / ٢٣٢.

(٤) (الجامع لأحكام القرآن) لأبى عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبى (ت٦٧١هـ)، عقد القرطبى فصلا في مقدمة تفسيره: ذكر فيه نكتاً في إعجاز القرآن، ووجوه ذلك الإعجاز عدّد فيها تلك الوجوه، وجعلها في عشرة: النظم البديع، والأسلوب المخالف لجميع أساليب العرب، والجزالة التي لا تصح من مخلوق بحال، والتصرف في لسان العرب على وجه لا يستقل به عربي، والإخبار عن الأمور التي تقدمت في أول الدنيا إلى وقت نزوله، من أمي ما كان يتلو من قبله من كتاب ولا يخطه بيمينه، والإخبار عن المغيبات في المستقبل. إلى آخر ما عده من ذلك [١].

(٥) (البرهان في علوم القرآن) لبدر الدين الزركشي (ت٧٩٤ هـ) وضمّن مباحثه نوعاً في معرفة إعجاز القرآن الكريم، قال فيه بعد استعراض بعض المصنفات في الإعجاز، وبعد استعراضه آيات التحدي بالقرآن: (وإعجاز القرآن ذكر من وجهين: أحدهما إعجاز متعلق بنفسه، والثاني بصرف الناس عن معارضته) ثم رد القول بالصرفة من وجوه، وبعدها ذكر أوجها للإعجاز من بينها: تأليف القرآن ونظمه الخاص به، وكذلك ما فيه من الإخبار عن الغيوب المستقبلة، وما تضمنه من إخباره عن قصص الأولين، وإخباره عن الضمائر- أي السرائر- من غير أن يبدو من أصحابها ما أكنته ضمائرهم من قول أو فعل، مثل قول الله تعالى: ﴿... **وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ...**﴾ [المجادلة:٨] إلى آخر تلك الأوجه[٢].

(٦) (الإتقان في علوم القرآن) لجلال الدين عبد الرحمن بن أبى بكر السيوطي (ت٩١١ هـ)، خصص السيوطى فى الإتقان النوع الرابع والستين

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن ١ / ٦٩ - ٧٥.

(٢) انظر: البرهان فى علوم القرآن ٢ / ١٠١ وما بعدها.

للكلام في إعجاز القرآن، فقدم بين يدي الكلام في ذلك بذكر بعض من أفرد الموضوع بالتصنيف من أعلام العلماء الذين مضى ذكر كثير منهم، مثل: الخطابي والرماني والباقلاني والرازي وغيرهم، ثم تكلم على أنواع المعجزات، والفرق بين معجزات السابقين من الأنبياء ومعجزة النبي ﷺ وهى القرآن، ثم عرض آيات التحدي، وردّ القول بالصرفة، ثم ذكر أقوال العلماء في وجه إعجازه، فلخص ما قاله السابقون في ذلك.

(٧) (روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني) لشهاب الدين الألوسي (ت١٢٧٠هـ) وسار الألوسى فيه على عادة كثير من المفسرين فقدم له بمقدمات قيمة ضمنها فوائد جليلة، جعل الفائدة السابعة منها في بيان وجه إعجاز القرآن، تكلم فيها على أوجه الإعجاز عند كثير من العلماء، ولم يرتض الكثير من أقوالهم خاصة ما قاله المعتزلة، وما قاله الجاحظ، وكذلك المرتضى من الشيعة، وردّ أكثر هذه الأقوال، وناقش أقوالاً أخرى، حتى انتهى إلى أن قال: (وقد أطال العلماء الكلام على وجه إعجاز القرآن، وأتوا بوجوه شتى، الكثير منها خواصه وفضائله، مثل الروعة التي تلحق قلوب سامعيه، وأنه لا يمله تاليه، بل يزداد حباً له بالترديد، مع أن الكلام يُعادى إذا أعيد. وكونه آية باقية لا تعدم ما بقيت الدنيا مع تكفل الله تعالى بحفظه، والذي يخطر بقلب هذا الفقير: أن القرآن بجملته وأبعاضه حتى أقصر سورة منه معجز بالنظر إلى نظمه وبلاغته، وإخباره عن الغيب، وموافقته لقضية العقل، ودقيق المعنى، وقد تظهر كلها في آية، وقد يستتر البعض كالإخبار عن الغيب، ولا ضير ولا عيب، فما يبقى كافٍ، وفي الغرض وافٍ) [(١)].

---

(١) انظر: روح المعانى ١ / ٣١.

وهكذا نجد أنه لم يخل عصر من العصور عبر القرون الإسلامية المباركة – سواء في فترات النشاط أو الفتور العلمي – من تناول إعجاز القرآن بالتأليف تقعيداً أو تطبيقاً، مما ينطق بأن هذا المدد العلمي المتتابع إنما هو في ذاته أثر من آثار إعجاز القرآن الكريم [١].

****

(١) عناية المسلمين بإبراز وجوه الإعجاز فى القرآن صـــ٢٧٥.

المبحث الأول
مناط الإعجاز فى القرآن الكريم

إجماع أهل العلم المعتد بإجماعهم، والذي ارتضته الأمة منهم منعقد على أن القرآن الكريم معجز بذاته، أي: بلفظه الذي نـــزل به جبريل على رسول الله ﷺ، وهو ما يتعلق – من بين أوجه الإعجاز – بالناحية البلاغية ابتداءً، مع ما تضمنه القرآن من أوجه أخرى ترجع إلى ذاته لفظاً ومعنى– سيأتي تفصيل الكلام عليها فى المباحث التالية:

وجمهور أهل السنة يذهبون إلى أن إعجاز القرآن الكريم ذاتى يتمثل فى نظمه البديع، وفصاحة ألفاظه، وبلاغة معانيه، وهو الوجه الذى وقع به التحدى للعرب إبان نزول القرآن، قال ابن عطية: (وهذا هو القول الذي عليه الجمهور والحذاق، وهو الصحيح في نفسه، وأن التحدي إنما وقع بنظمه وصحة معانيه، وتوالي فصاحة ألفاظه) (١).

غير أن هناك من خالف هذا الرأى الذى عليه الجمهور، فذهب إلى أن وجه إعجاز القرآن ليس فى أسلوبه وبلاغته ونظمه وفصاحته، وإنما فى الحيلولة بين العرب وبين معارضته وتحديه، فقد صرف الله هممهم عن معارضته والقول على منواله، ولو خُلِّى بينهم وبينه لأتوا بمثل القرآن فى بلاغته وفصاحته، وهذا هو ما سماه العلماء بالصَّرْفَة. فما شأن القول بالصَّرْفَة هذا ؟

القول بالصرفة يقوم أساساً على اعتبار أن القرآن في ذاته، أي: بلفظه وأسلوبه غير معجز، وأن عدم إتيان العرب بمثله ليس علته عدم قدرتهم على ذلك، فهم البلغاء الفصحاء، ولكن العلة في ذلك راجعة إلى أن الله تعالى قد صرفهم عن المحاولة، وسلب علمهم الذي كان يمكن به– في نظر القائل بذلك– أن يأتوا

---

(١) انظر: المحرر الوجيز ١ / ٦٠.

بمثل القرآن، فهم كانوا قادرين، لكنهم لم ينشطوا لهذا الأمر، أو لم تتوفر الدواعي لديهم للمعارضة ابتداءً.

وقد ورد هذا التفسير للقول بالصرفة في عبارات العلماء من قديم:

قال الخطابى: (وذهب قوم إلى أن العلة في إعجازه الصرفة، أي: صرف الهمم عن المعارضة، وإن كانت مقدوراً عليها، إلا أن العائق من حيث كان أمراً خارجاً عن مجاري العادات صار كسائر المعجزات) [(١)]. أي: أن الصرف أو المنع الذي سماه الخطابي عائقاً لما كان أمراً خارجاً عن العادة صار هو المعجز لا القرآن.

وعرفها الشريف المرتضى بقوله: (الصَّرْفَة: سلبُ الله تعالى كل من رام المعارضة، وفكر فى تكلفها فى الحال، العلوم التى يتأتى معها مثل فصاحة القرآن وطريقته فى النظم) [(٢)].

ولم يؤثر عن أحد من السلف من أهل السنة بمعناها الخاص [(٣)] القول بالصرفة وجهاً لإعجاز القرآن، وإنما كان القول بالصرفة من الأقوال التى قيلت فى إعجاز القرآن بعد بدء التصنيف والجدل فى إعجاز القرآن، ولذلك فإن نشأة هذا القول كانت متزامنة مع بداية الجدل والقول فى وجوه إعجاز القرآن، وأول من قال بها وابتدعها واشتهرت على يده هو إبراهيم بن سيار النظام البصرى المعتزلى، المتوفى سنة (٢٣١هـ)، ولم يحفظ قول النظام هذا فى كتاب حتى يمكن التحقق منه ومن حقيقته، مع وصفه بعدم التحقيق كما يقول الشريف المرتضى: (وقد حكي عن أبي إسحاق النظام القول بالصرفة من غير تحقيق لكيفيتها،

(١) بيان إعجاز القرآن صـ٢٢.

(٢) انظر: الموضح عن جهة إعجاز القرآن (الصرفة) صـ٣٥، ٣٦.

(٣) وهو ما يقابل المبتدعة وأهل الأهواء. انظر: منهاج السنة النبوية ٢ / ٢٢١.

وكلام في نصرتها) [1]، وقد اشتهر هذا مذهباً للنظام كما يقول الشريف: (فأما النظام فمذهبه فى ذلك –أى فى القول بالصرفة – معروف) [2].

ونسبة إشهار هذه المقولة للنظام هو قول معظم من أرخ للقول بالصرفة من المعتزلة أنفسهم، ومن غيرهم، ومن أول من نسبها صراحة له من غير المعتزلة أبو الحسن الأشعرى (ت٣٢٤هـ) [3]،وعبد القاهر البغدادى (ت٤٢٩هـ) [4]، والشهرستانى (٥٤٨هـ) [5].

غير أنه من الإنصاف القول بأن النظام لم يكن يقول بأن الصرفة هى الوجه الوحيد للإعجاز، وإنما يقول بأن الصرفة هى أبرز وجوه الإعجاز، وهو معجز بغير ذلك كإخباره بالغيب.

وأما عن أسباب القول بالصرفة فى إعجاز القرآن الذى قال به النظام ومن شايعه فترجع إلى ثلاثة أسباب:

أ) انعدام الدواعي الباعثة على هذه المعارضة.

ب) عدم النشاط والانبعاث إلى المعارضة، وبالتالي عدم تعلق الإرادة بها مع وجود الدواعي إليها.

---

(١) الذخيرة فى علم الكلام صـ٣٨٧، طباعة جماعة المدرسين.

(٢) الموضح عن جهة إعجاز القرآن صـ٧٣.

(٣) انظر: مقالات الإسلاميين ١ / ٢٩٦، دار الكتب العلمية.

(٤) انظر: الفرق بين الفرق صـ١٤٣، ط / دار المعرفة، ت /محمد محيي الدين عبد الحميد.

(٥) انظر: الملل والنحل ١ / ٥٦، ط / دار المعرفة، ت / محمد سيد كيلانى ١٤٠٠هـ.

جـ) تعطيل المواهب البيانية، وتعويق القدرة البلاغية، وسلب الأسباب العادية إلى المعارضة، وذلك على نحو مفاجئ عند المحاولة، رغم تعلق الإرادة بها، وتوجه الهمة إليها.

وفى ذلك يقول الباقلاني: (فإن قيل: فلِمَ زعمتم أن البلغاء عاجزون عن الإتيان بمثله مع قدرتهم على صنوف البلاغات، وتصرفهم في أجناس الفصاحات ؟ وهلا قلتم: إنَّ مَن قدر على هذه الوجوه البديعة، وتوجه من هذه الطرق الغريبة كان على مثل نظم القرآن قادرا، وإنما يصرفه الله عنه ضربا من الصرف، أو يمنعه من الإتيان بمثله ضربا من المنع، أو يقصر دواعيه دونه مع قدرته عليه ليتكامل ما أراده الله من الدلالة، ويحصل ما قصده من إيجاب الحجة، لأن من قدر على نظم كلمتين بديعتين لم يعجز عن نظم مثلهما، وإذا قدر على ذلك قدر على ضم الثانية إلى الأولى وكذلك الثالثة حتى يتكامل قدر السورة...) (١). إلخ كلامه.

ويظهر أن القول بالصرفة بما بني عليه يسلب القرآن الكريم خاصة إعجازه الذاتية، وهو من الخطورة بالقدر الذي يترتب عليه فقد أهم دلائل صدق رسالة النبي ﷺ، ولذلك فإنه قول ساقط بذاته عند أدنى فكر وتأمل، وسأشير إلى ما يبطل تلك الأسباب التى ظهر من كلام العلماء أن الصرفة كانت من أجلها.

(أما أول الأسباب التي ساقوها: وهو انعدام دواعي العرب إلى معارضة القرآن، وأنهم لو توفرت تلك الدواعي عندهم فلربما عارضوه، فيرده ما سجله تاريخ هؤلاء العرب مع القرآن، وما أثبته تواتر النقل من توفر تلك الدواعي التي من بينها أن القرآن تحداهم في أكثر من موضع منه بأن يأتوا بمثله، أو بعشر سور، أو بسورة من مثله، وقطع بأنهم لن يفعلوا ذلك: ﴿ **وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ**

(١) انظر: إعجاز القرآن صـ٥٥، ٥٦.

صَادِقِينَ. فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾ [البقرة: ٢٣،٢٤] ولو تظاهر على ذلك الإنس والجن: ﴿ **قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا** ﴾ [الإسراء: ٨٨].

كما أن القرآن قد أثار حميتهم – وهم مضرب المثل في الأنفة وإباء الضيم– بما شنه عليهم من حرب شعواء على معتقداتهم التي توارثوها، وسفه عقولهم، وعقول آبائهم، ونعى عليهم الشرك والجهل، وهم مع ذلك قوم صناعتهم البيان، وفخرهم في التنافس في ميدان الكلام، فكيف مع سكوتهم على هذا الضيم الذي لو وجدوا سبيلا إلى دفعه لسلكوه مسرعين، كيف يقال بعدم توفر الدواعي لديهم.

أما ثاني هذه الأسباب: وهو عدم انبعاثهم ونشاطهم، وعدم تعلق إرادتهم بالمعارضة مع وجود الدواعي فينقضه كذلك التاريخ والواقع، فقد سجل هذا التاريخ محاولاتهم المستمرة في الكيد للإسلام، حتى وصل الأمر إلى تآمرهم على قتل الرسول ﷺ، وتبع ذلك ما كان بعد الهجرة وإقامة دولة الإسلام في المدينة من خوضهم الحروب ضد الإسلام، وإقدامهم على بذل أموالهم وإراقة دمائهم، وسبي ذراريهم في هذه السبيل، فكيف يقال بعد ذلك إنهم لم ينشطوا إلى المعارضة، وقد بذلوا في بديلها أضعاف أضعاف ما كانوا يبذلونه فيها من جهد لو كانت في مقدورهم؟.

وأما ثالث هذه الأسباب: وهو تعطيل مواهبهم وسلب قدراتهم فجأة مع توفر الدواعي، وانبعاث النشاط، فيرده أنه: لو كان الأمر كذلك لأثر عنهم الاعتذار بهذا التفاوت العلمي بين ما في القرآن وبين ما عندهم، وذلك ليقللوا من شأن القرآن

في ذاته، وأنه ما كان إعجازه إلا لصرفهم عنه، ولكن ذلك لم يذكر عنهم أبداً) [١].

فإذا أضفنا إلى ذلك:

(١) أن القول بالصرفة يسلب القرآن مزية الفصاحة والإعجاز الذاتى بالنظم البديع، والبلاغة العالية، وهذا مخالف لإجماع الأمة قبل ظهور الخلاف: أن القرآن معجز بنظمه وفصاحته، قال القرطبى: (إجماع الأمة قبل حدوث المخالف أن القرآن هو المعجز، فلو قلنا: إن المنع والصرفة هو المعجز لخرج القرآن عن أن يكون معجزا، وذلك خلاف الإجماع، وإذا كان كذلك علم أن نفس القرآن هو المعجز، لأن فصاحته وبلاغته أمر خارق للعادة، إذ لم يوجد قط كلام على هذا الوجه، فلو لم يكن ذلك مألوفاً معتاداً منهم دل على أن المنع والصرف لم يكن معجزا) [٢].

وهذا يجعل الإضافة فى قولنا " إعجاز القرآن " تعبيراً موهماً، حيث إن الإعجاز لا يضاف للقرآن، وإنما لله الذى صرف العرب عن معارضته، وإن كان ذلك يصح لأن القرآن كلام الله وهو صفة من صفاته.

(٢) لو كانت المعارضة ممكنة، لم يكن الكلام معجزاً، وإنما يكون المنع هو المعجز، فلا يتضمن الكلام فضيلة على غيره [٣]، وهذا يعارض ما اشتهر ونقل عن العرب من إعجابهم الشديد، وانبهارهم بفصاحة القرآن ونظمه وبلاغته، كما فى قصة أنيس بن جنادة أخى أبى ذر (رضي الله عنه)، حيث لقى النبى ﷺ بمكة وسمعه يتلو القرآن، وسمع قول قريش فيه إنه ساحر وشاعر وكاهن، فقال أنيس: لقد

---

(١) عناية المسلمين، د / محمد جبريل صـــ٢٥٥، وانظر: مناهل العرفان ٢ / ٤١٤.

(٢) الجامع لأحكام القرآن ١ / ٧٥.

(٣) انظر: إعجاز القرآن للباقلانى صـــ٣٠.

سمعت قول الكهنة فما هو بقولهم، ولقد وضعت قوله على أقراء[١] الشعر فما يلتئم على لسان أحد أنه شعر، والله إنه لصادق وإنهم لكاذبون " [٢]، وهذه شهادة ذات دلالة ظاهرة على معرفة العرب ببلاغة القرآن وفصاحته، وأنه باين كلامهم وفارقه وعلا عليه.

ومثل ذلك قصة الوليد بن المغيرة، ووصفه للقرآن بكلام بليغ يدل على بلاغته وأثره فى نفسه منه، قوله: " والله إن لقوله الذي يقوله لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإنه لمثمر أعلاه، مغدق أسفله، وإنه ليعلو وما يعلى، وإنه ليحطم ما تحته " [٣]، وقد أخرج هذه القصة البيهقى تحت باب:" اعتراف مشركي قريش بما في كتاب الله تعالى من الإعجاز، وأنه لا يشبه شيئاً من لغاتهم مع كونهم من أهل اللغة وأرباب اللسان ".

وهذه الأمثلة ونحوها تدل على أن القرآن الكريم قد بهر العرب بتفوق بيانه، وأثار أسلوبه وعبارته إعجابهم، حيث أعلنوا أنهم ما رأوا مثله شعراً ولا نثراً، ومقتضى هذا أن إعجاز القرآن لذاته لا لشئ خارج عنه، وإلا لو كان كلاماً كسائر الكلم ما لفت أنظارهم، ولا أخذ بألبابهم.

قال عبد القاهر الجرجاني: (إنه لو لم يكن عجزهم عن معارضه القرآن وعن أن يأتوا بمثله لأنه معجز في نفسه، لكن لأنه أدخل عليهم العجز عنه، وصرفت

---

(١) أقراء الشعر هى: ما عرف بعد ذلك ببحور الشعر وعروضه التى وضع قواعدها الخليل بن أحمد، وهذا يدل على أن العرب كانت لهم مقاييس معتبرة للشعر تعرفها وتلتزم بها، وإن لم تكتبها. انظر: مشكل الآثار للطحاوى ٧ / ٣٥٠.

(٢) أخرجه مسلم فى كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل أبى ذر (ﷺ) ١٦ / ٢٨.

(٣) أخرجه البيهقى فى دلائل النبوة ١٩٨/٢، والحاكم فى المستدرك ٥٠٦/٢، وصححه ووافقه الذهبى.

هممهم وخواطرهم عن تأليف كلام مثله، وكان حالهم على الجملة حال من أعدم العلم بشيء قد كان يعلمه، وحيل بينهم وبين أمر قد كان يتسع له؛ لكان ينبغي أن لا يتعاظمهم، ولا يكون منهم ما يدل على إكبارهم أمره، وتعجبهم منه، وعلى أنه قد بهرهم، وعظم كل العظم عندهم، بل كان ينبغي أن يكون الإكبار منهم والتعجب للذي دخل عليهم من العجز) (١).

وقال أبو زهرة: (لو قلنا إن الذي منع العرب عن الإتيان بمثله هو الصرفة ما كان القرآن هو المعجز، وإنما يكون العجز منهم، ولم يكونوا عاجزين، وإنما يكون قد أعجزهم الله، ولم يعجزهم القرآن ذاته، وقد كان القرآن هو معجزة النبي ﷺ، والقول بالصرفة ينفي عنه خواص الإعجاز) (٢).

(٣) يلزم من القول بالصرفة أن (يكون العرب قد تراجعت حالها فى البلاغة والبيان، وفى جودة النظم وشرف اللفظ، وأن يكونوا قد نقصوا فى قرائحهم وأذهانهم، وعدموا الكثير مما كانوا يستطيعون، وأن تكون أشعارهم التى قالوها، والخطب التى قاموا بها، وكل كلام احتفلوا فيه، من بعد أن أوحى إلى النبى ﷺ، وتحدوا إلى معارضة القرآن قاصرةً عما سمع منهم من قبل ذلك القصور الشديد، وأن يكون قد ضاق عليهم فى الجملة مجال قد كان يتسع لهم) (٣). وهذا كله لم يحدث، فدل على فساد القول بالصرفة، وأن العرب قد سلبوا الفصاحة والبيان اللذين كانا لهم قبل نزول القرآن والتحدى به.

(٤) ومما يلزم القائلين بالصرفة أنه كان ينبغى على العرب أن تكون قد عرفت من أنفسها أنها فقدت علوماً وقدرة كانت حاصلة لها قبل نزول القرآن، ولو

---

(١) دلائل الإعجاز صـ٣٩٠، ٣٩١.

(٢) المعجزة الكبرى صـ٦١.

(٣) انظر: الرسالة الشافية، لعبد القاهر الجرجانى صـ١٤٦.

عرفوا ذلك من أنفسهم لظهر ذلك على ألسنتهم، ولقالوا للنبى ﷺ إنا كنا نستطيع قبل هذا الذى جئتنا به، ولكنك قد سحرتنا واحتلت فى شئ حال بيننا وبينه [1].

(٥) أن القول بالصرفة يتعارض مع قوله تعالى: ﴿ **قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا** ﴾ [الإسراء: ٨٨] حيث أشار في ذلك إلى أمر طريقه التكلف والاجتهاد، وسبيله التأهب والاحتشاد، والمعنى في الصرفة لا يلائم هذه الصفة [2].

قال السيوطي بعد ذكره الآية الكريمة: (فإنه يدل على عجزهم مع بقاء قدرتهم، ولو سلبوا القدرة لم يبق لهم فائدة لاجتماعهم، لمنزلته منزلة اجتماع الموتى، وليس عجز الموتى مما يحتفل بذكره، هذا مع أن الإجماع منعقد على إضافة الإعجاز إلى القرآن، فكيف يكون معجزاً وليس فيه صفة إعجاز! بل المعجز هو الله تعالى حيث سلبهم القدرة على الإتيان بمثله) [3].

(٦) أنه قد حصلت محاولات للمعارضة من مسيلمة الكذاب وغيره، وقد كثرت فى زماننا هذا المعارضات للقرآن ولاسيما فى المواقع الالكترونية على الانترنت، وهذا يرد على من يقول بالصرفة، إذ لو صرفوا لما وجدت تلك المعارضات أصلاً، وإن كان القول فيما جاء به مسيلمة وأمثاله لم يَدَّع فيه المعارضة، وإنما كان الادعاء أنه يأتيه الوحى كما يأتى النبى ﷺ دون التحدى بما جاء به، وأنه فى منزلة القرآن من حيث الفصاحة والبلاغة، ولذلك كان ذلك الادعاء مدعاة للسخرية والاستهزاء من العرب.

---

(١) المصدر السابق صـــ١٤٨.

(٢) انظر: بيان إعجاز القرآن للخطابى صـــ٢٣.

(٣) انظر: الإتقان فى علوم القرآن ٢ / ١٠٠٦.

(٧) أنه لو كان الإعجاز بالصرفة، لكان نزول القرآن فى مرتبة أقل من حيث البلاغة والفصاحة أبلغ فى التحدى للعرب من نزوله بهذه الدرجة العالية من البلاغة، إذ المنع من معارضة ما كان فى مستوى بلاغة الناس أدل على الإعجاز.

كانت هذه أبرز الردود على القول بالصرفة [١]، على أن الأجدر بنا أن نحمل كلام القائلين بالصرفة – من باب إحسان الظن بهم – على سعيهم لحماية جانب القرآن الكريم، والاستدلال على أن الله تعالى قد حفظه وصانه من عبث العابثين والمعارضين، فلا يقدح فى عقائدهم بما لا يلزمهم من القول بالصرفة، حيث إن كثيراً من اللوازم الباطلة التى ألزم بها القائلون بالصرفة قد تبرأوا من هذه اللوازم، كالقول بأن هذا يستلزم خلو القرآن من الفصاحة، وعجيب النظم المباين لكلام البشر [٢].

ثم إن القول بالصرفة لم يقله القائلون به طعناً فى القرآن الكريم، وإلحاداً فيه ورداً وإنكاراً لإعجازه، وإنما كما قال الدكتور عدنان زرزور: (لأن هذا الرأي قد يكون آكد في باب الإيمان والتسليم بأن القرآن كلام الله... ولكنه من باب البعد عن تذوق البلاغة والبيان) [٣]، وقد وصفه الشيخ رشيد رضا بأنه: (رأي كسول أحب أن يريح نفسه من عناء البحث، وإجالة قدح الفكر في هذا الأمر) [٤]، ومثله الدكتور دراز حيث قال بعد عرضه لمذهب الصرفة والقائلين به: (هذا هو القول

---

(١) انظر: القول بالصرفة فى إعجاز القرآن " عرض ونقد "، د / عبد الرحمن الشهرى صـ٣١٣.

(٢) المصدر السابق صـ٣٢٣.

(٣) انظر: علوم القرآن وإعجازه وتاريخ توثيقه صـ٤٧٦.

(٤) تفسير المنار ١ / ١٩٨.

بالصرفة، الذي اشتهر عن النظام من المعتزلة، وهو وإن كان اعترافًا في الجملة بصحة الإعجاز إلا أنه لا يقول به إلا أعجمي أو شبهه ممن لم يذق للبلاغة طعمًا، ولذلك لم يتابعه عليه تلميذه الجاحظ، ولا أحد من علماء العربية، وهو يعد خلاف ما عرفه العرب من أنفسهم) [1].

على أن القول بالصرفة في ذاته بما يحمله من دلائل بطلانه قد كان سبباً في استنهاض همم العلماء للكتابة في إعجاز القرآن، وهذا ما سأتعرض له في المباحث التالية:

****

(١) النبأ العظيم صـــ٨٩.

المبحث الثانى
الإعجاز اللغوى للقرآن الكريم

وهو أبرز وجوه الإعجاز وأظهرها، إذ هو المطابق لأحوال العرب وقت نزول القرآن، فالتحدى يكون بجنس ما برز فيه القوم وتفوقوا، وهم تفوقوا فى البيان والبلاغة والفصاحة، ولم يتفوقوا فى العلوم والمعارف، وأخبار الغيب أو التشريع أو نحو ذلك، فكان الإعجاز بالبيان أظهر وجوه التحدى وأبرزها.

والقوم أدركوا أول ما أدركوا إعجازه البيانى؛ فملك منهم الألباب، واستولى على الأفئدة، فانقطعوا عن معارضته، فكان دليلاً قاطعاً على أنه بلغ حداً فى البلاغة والفصاحة لا يستطيعه بشر، فانتهوا بفطرهم إلى أنه لا طاقة لهم بمثله، فاستيئسوا من معارضته، وقد كانوا من علو الهمة ورجاحة الرأى، بحيث لا يعرضون أنفسهم للافتضاح، ولا يرضون لأنفسهم بالانتقاص، لذلك رأوا أن الإمساك عن المعارضة أحرى بهم، وللقاضى عياض فى ذلك عبارات جامعة تذكر جانباً من هذا الموقف فى العجز، والاعتراف بإلهية المصدر القرآنى رغم الجحود والكفر، حيث يقول: (فلم يزل ﷺ يقرعهم أشد التقريع، ويوبخهم غاية التوبيخ، ويسفه أحلامهم، ويحط أعلامهم، ويشتت نظامهم، ويذم آلهتهم وإياهم، ويستبيح أرضهم وديارهم وأموالهم، وهم في كل هذا ناكصون عن معارضته، محجمون عن مماثلته، يخادعون أنفسهم بالتشغيب بالتكذيب، والإغراء بالافتراء، وقولهم: إن هذا إلا سحر يؤثر، وسحر مستمر، وإفك افتراه، وأساطير الأولين، والمباهتة والرضى بالدنيئة كقولهم: قلوبنا غلف، وفى أكنة مما تدعونا إليه، وفى آذاننا وقر، ومن بيننا وبينك حجاب، ولا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون، والادعاء مع العجز بقولهم: لو نشاء لقلنا مثل هذا، وقد قال لهم الله ﴿ **وَلَنْ تَفْعَلُوا** ﴾ فما فعلوا ولا قدروا، ومن تعاطى ذلك من سخفائهم كمسيلمة كشف عواره لجميعهم، وسلبهم الله ما ألفوه من فصيح كلامهم، وإلا فلم يخف على أهل

الميز منهم أنه ليس من نمط فصاحتهم، ولا جنس بلاغتهم، بل ولوا عنه مدبرين، وأتوا مذعنين من بين مهتدى وبين مفتون) [١].

وإذا كان العرب وهم بهذه المنزلة بلاغة وفصاحة قد عجزوا هذا العجز التام المطبق؛ فغيرهم أشد عجزاً، وأبعد هزيمة.

ويطلق على هذا الوجه عدة مصطلحات فيسمى (الإعجاز اللغوى) و (الإعجاز البيانى) و (الإعجاز البلاغى) وتدخل فى هذا المعنى أيضاً أقوالهم المختلفة فى أن إعجاز القرآن (بلاغته) أو (فصاحته) أو (ما تضمنه من البديع) أو (نظمه) أو (أسلوبه) أو غير ذلك من فروع اللغة العربية.

والناظر فى القرآن الكريم لا يخلو من حالتين [٢]:

الأولى: أن لا يكون ممن أوتوا قوة المعرفة للفصل بين درجات الكلام، والتفريق بين البليغ والأبلغ والفصيح والأفصح.

الثانية: أن يكون قد أوتى حظاً من التمييز بين الأساليب ومعرفة درجات البلاغة والفصاحة [٣].

---

(١) الشفا ١ / ٢١٩، ٢٢٠.

(٢) انظر فى ذلك: النبأ العظيم، د/دراز صـــ٩٢ وما بعدها، ومناهل العرفان للزرقانى ٣٠٩/٢ وما بعدها، وإعجاز القرآن والبلاغة النبوية للرافعى صـــ٢١٣ وما بعدها، ودراسات فى علوم القرآن، د / فهد الرومى صـــ٢٨١ وما بعدها، وخصائص القرآن الكريم له صـــ١٣ وما بعدها.

(٣) يقول الخفاجى فى سر الفصاحة صـــ٥٩، دار الكتب العلمية، ط ١ / ١٤٠٢هـــ.فى التفريق بين الفصاحة والبلاغة: الفصاحة مقصورة على وصف الألفاظ، والبلاغة لا تكون إلا وصفاً للألفاظ مع المعاني.لا يقال في كلمة واحدة لا تدل على معنى يفضل عن مثلها بليغة، وإن قيل فيها إنها فصيحة، وكل كلام بليغ فصيح، وليس كل فصيح بليغاً. أ هـــ

فإن كان من الفئة الأولى فلا سبيل له لمعرفة إعجاز القرآن وبلاغته بحسه، وإنما سبيله أن يقنع بشهادة أهل المعرفة، وهم هنا أهل البلاغة، وأعلمهم بذلك سليقة، وأجودهم فطرة، وأتقنهم تربية وسماعاً هم من نزل عليهم القرآن، وأولئك قد أقروا بذلك فى مشاهد عديدة، فهذا الوليد بن المغيرة يقول لمن أنكر عليه سماعه للقرآن وتأثره به: (والله ما فيكم رجل أعلم بالأشعار مني، ولا أعلم برجزه ولا بقصيده مني، ولا بأشعار الجن، والله ما يشبه الذي يقول شيئا من هذا، ووالله إن لقوله الذي يقول لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإنه لمثمر أعلاه، مغدق أسفله، وإنه ليعلو وما يعلى، وإنه ليحطم ما تحته. قال له أبو جهل: لا يرضى عنك قومك حتى تقول فيه، قال: فدعني حتى أفكر، فلما فكر قال: هذا سحر يؤثر يأثره عن غيره، فنزلت: ﴿ **ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا** ﴾ وقد وصف الله تفكيره بقوله: ﴿ **إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ. فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ. ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ. ثُمَّ نَظَرَ. ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ. ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ. فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلا سِحْرٌ يُؤْثَرُ. إِنْ هَذَا إِلا قَوْلُ الْبَشَرِ** ﴾ [المدثر: ١٨– ٢٥] (١).

قال الدكتور دراز: (فانظر تصوير القرآن للجهد العنيف الذي بذله الرجل في إصدار حكمه الثاني، حيث يقول: إنه فكر وقدر، ثم نظر، ثم عبس وبسر، ثم أدبر واستكبر، ومعنى هذا كله أنه كان يقاوم فطرته، ويستكره نفسه على مخالفة وجدانه، وأنه كان في حيرة وضيق بما يقول.. وأخيرًا استطاع أن يقول ما قال نزولاً على إرادة قومه، وانظر الفرق بين هذا الحكم المصطنع وبين حكم البديهة العربية في قوله أول مرة: إنه يعلو وما يُعلى، وإنه يحطم ما تحته) (٢).

---

(١) أخرجه الحاكم فى المستدرك ٢ / ٥٠٦ وقال: صحيح على شرط البخارى، ووافقه الذهبى.

(٢) انظر: النبأ العظيم صـــ٩٤.

هذه شهادة أهل اللغة أنفسهم، وهى شهادة خصم، والفضل ما شهدت به الأعداء.

وإذا لم تر الهلال فسلم .. لأناس رأوه بالأبصار

وإن كان من الفئة الثانية، وهم الذين أوتوا حظاً من تذوق البيان، وشيئاً من إدراك البلاغة فدونه نصوص البلغاء، وأبيات الشعراء، وكلمات الخطباء، ليختر منها ما شاء من أرقى عصور البلاغة، وأعلى صور البيان، ثم ينظر فى آية من آيات القرآن سيجد البون شاسعاً، والفرق كما بين الثرى والثريا، أو السماء والأرض.

فإن قلت: نعم لقد نثرت كنانة الكلام بين يدي وعجمت سهامها، فما وجدت كالقرآن أصلب عوداً، ولقد وردت مناهل القول وتذوقت طعومها فما وجدت كالقرآن أعذب مورداً، وقد آمنت أنه كما وصفتموه غير أن الذي أحس به من ذلك معنى يتجمجم في الصدر لا أحسن تفسيره ولا أملك تعليله، فهل من سبيل إلى عرض شيء من ذلك علينا لتطمئن به قلوبنا ونزداد إيماناً إلى إيماننا ؟

قلنا: إن هذا أمر جسيم، ومرام بعيد لا يمكن رسمه فى هذه العجالة ولو طالت، ولعلنا نذكر ما يقرب البعيد ويدنيه، ونتحدث عن أمرين:

أولهما: ألفاظه وهى القشرة البادية.

ثانيهما: معانيه وهى اللآلئ الكامنة.

فأول ما يلاقيك من ألفاظه خاصية تأليفه الصوتي في شكله وجوهره:

١) دع القارئ المجود يقرأ القرآن يرتله حق ترتيله نازلاً بنفسه على هوى القرآن، وليس نازلاً بالقرآن على هوى نفسه،ثم انتبذ منه مكاناً قصياً لا تسمع فيه جرس حروفه ولكن تسمع حركتها وسكناتها، ومداتها وغناتها، ووصلها وسكتها، ثم ألق سمعك إلى هذه المجموعة الصوتية ستجد اتساقاً وائتلافاً يسترعي سمعك لا يعروك منه على كثرة ترداده ملل ولا سأم. هذا الجمال في لغة القرآن لا يخفى على

أحد ممن سمع القرآن حتى الذين لا يعرفون لغة العرب، فكيف يخفى على العرب أنفسهم، إنه النظام الصوتي البديع الذي قسمت فيه الحركة والسكون تقسيماً منوعاً، ووزعت في تضاعيفه حروف المد والغنة توزيعاً بالقسط، يساعد على ترجيع الصوت به وتهادى النفس فيه آناً بعد آن.

٢) وإذا ما قربت أذنك قليلاً قليلاً، فطرقت سمعَك جواهر حروفه خارجة من مخارجها الصحيحة، فاجأتك منه لذة أخرى في نظم تلك الحروف ورصفها وعلاقاتها من بعضها فهذا يصفر، وذاك يهمس، وذلك يجهر، وآخر ينزلق عليه النفَس، وآخر يحتبس عنده النفس، وهلُمَّ جراً، فترى الجمال اللغوي ماثلاً أمامك في مجموعة مختلفة مؤتلفة.

ومن هاتين الصفتين السابقتين تتألف القشرة السطحية للجمال القرآني، وليس الشأن في هذا الغلاف إلا كشأن الأصداف مما تحويه من اللآلئ النفيسة، فاقتضت حكمته تعالى أن يصون معانى القرآن الكريم السامية بألفاظ عذبة تغرى بطلاوتها، وتكون بمنزلة (الحداء) يستحث النفوس على السير إليها، ويهون عليها عناء السفر في طلبها، لا جرم اصطفى لها من هذا اللسان العربي المبين ذلك القالب العذب الجميل، ومن أجل ذلك سيبقى صوت القرآن أبدًا في أفواه الناس وآذانهم ما دامت فيهم حاسة تذوق وحاسة تسمع، وإن لم يكن لأكثرهم قلوب يفقهون بها حقيقة سره، وينفذون بها إلى بعيد غوره.

وإذا كان الكلام المؤلف يعود فى تأليفه إلى حروف فى كلمات، وكلمات فى جمل، وجمل فى نظم، فإن الإعجاز البلاغى ظاهر فى كلماته وجمله ونظمه وأسلوبه.

أما كلمات القرآن الكريم فقد بلغت أعلى درجات الفصاحة والبيان. وما أحسن قول الزركشى فى مقدمة كتابه البرهان: كل كلمة منه لها من نفسها طرب،

ومن ذاتها عجب، ومن طلعتها غرة، ومن بهجتها درة، لاحت عليه بهجة القدرة، فله على كل كلام سلطان وإمرة:

هذا وكم فيه من مزايا .. وفى زواياه من خبايا

ويطمع الحبر في التقاضى .. فيكشف الخبر عن قضايا

فسبحان من سلكه ينابيع في القلوب، وصرفه بأبدع معنى وأغرب أسلوب، لا يستعصى معانيه فهم الخلق، ولا يحيط بوصفه على الإطلاق ذو اللسان الطلق.

أندى على الأكباد من قطر الندى .. وألذ في الأجفان من سنة الكرى[١].

ومن أعظم وجوه فصاحتها أنها جمعت بين صفتى الجزالة والعذوبة، وهما كالمتضادين فى كلام البشر، لأن الألفاظ الجزلة تغلب عليها القوة والفخامة، وبعض الوعورة، كما أن الألفاظ العذبة يغلب عليها السلاسة والسهولة دون القوة، فجمعت ألفاظ القرآن محاسن الفصاحة كلها، وهو مما يتعذر على البشر إدراكه [٢].

وأما الجمل فهى كذلك قد تلاقت كلماتها فى تراكيبها، وتآخت فى جرسها ومعانيها، وكأنما هى نسيج واحد، وهذا ظاهر فى كل آيات القرآن، فلا تنافر فى الألفاظ ولا المعانى، وهما فى مجموعهما ينسابان فى النفس كالغذاء الهنيء وكالماء الزلال [٣].

وإذا كان علماء البيان قد اشترطوا لفصاحة الجمل وبلاغتها أن تكون الكلمات فصيحة فى ذاتها قبل تركيب الجملة، وفصيحة وبليغة أيضاً بعد التركيب، بحيث

---

(١) انظر: البرهان فى علوم القرآن ١ / ٣ – ٥.

(٢) انظر: البيان فى إعجاز القرآن للخطابى، ضمن ثلاث رسائل فى إعجاز القرآن صـــ١٦.

(٣) انظر: المعجزة الكبرى لأبى زهرة صـــ٩٥، ١٢٨.

توضع الكلمات فى مواضعها المناسبة، فإن القرآن أتى فى هذا الباب بكل الجمال والجلال والكمال مما يعجز اللسان عن استيفاء وصفه.

وأما النظم القرآنى، فقد نسج نسجاً، بالغاً منتهى ما تطيقه اللغة العربية، من الدقائق واللطائف، لفظاً ومعنى، بما يفى بأقصى ما يراد إبلاغه إلى المرسل إليهم.

لقد جاء نظم القرآن فى الغاية القصوى من الفصاحة، مما جعل الإتيان بمثل القرآن ميداناً للتحدى، ومعجزاً لأكابر الفصحاء من العرب.

ويظهر قصور البشر، أنك ترى الفصيح منهم يصنع خطبة أو قصيدة، يستفرغ فيها جهده، ثم لا يزال ينقحها دهراً، ثم تعطى لآخر نظيره، فيأخذها بقريحة جامدة، فيبدل فيها وينقح، ثم لا تزال كذلك فيها مواضع للنظر والبدل، أما كتاب الله المعجز، لو نزعت منه لفظة واحدة، ثم نقب أكابر علماء اللغة فى لسان العرب فى أن يجدوا أحسن منها لم يجدوا إلى ذلك سبيلا، كما قال تعالى: ﴿ **وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا** ﴾ [النساء: ٨٢].

ومن أعظم مظاهر إعجاز نظم القرآن أنه جاء وفق أساليب مبتكرة، لم تكن معهودة فى كلام العرب، كأسلوب التقسيم، والتسوير سورة سورة، ومنه دخلت طريقة التبويب والتصنيف عند العرب.

وتجد فى سور القرآن سوراً قصيرة جامعة شاهدة على إعجاز القرآن وروعته، قد جاءت آياتها فى أجمل نظم، وسبكت كلماتها سبكاً يأخذ بالألباب، كسورة الفاتحة مثلاً.

ومن مظاهر إعجاز نظم القرآن الأسلوب القصصى، الذى شغل مساحة واسعة من السور المكية، وقد أبدع فيه القرآن، وكان من أمضى أساليب الدعوة، وأبلغها تأثيراً فى المدعوين، كما أنه كان عظيماً فى مؤانسة وتصبير النبى ﷺ وأصحابه، وتثبيتهم.

ويعد هذا الأسلوب لوناً من ألوان التصريف البيانى فى القرآن، ومن ذلك تكراره للقصة الواحدة فى مواضع كثيرة من القرآن، ما بين إيجاز لها وإطناب، لكنها تساق فى كل موضع بالقدر الذى يناسب موضوع السورة، ويحقق أغراضها، وتؤلف على نظم وتركيب خاص بذلك الموضع ومغاير للمواضع الأخرى (١).

فإنك ترى القصة الواحدة، التي لا تكاد تتطابق معانيها، تأتي في صورة مختلفة، وقوالب من الألفاظ متعددة، حتى لا تكاد تشتبه في موضعين منه، وهذا من الإحكام.

ومن الإحكام كذلك: أنك ترى القصة الواحدة تتكرر، وقد اتفقت كلها وتواطأت، فليس فيها تناقض، ولا اختلاف، فكلما ازداد بها البصير تدبراً، وأعمل فيها العقل تفكراً، انبهر عقله، وذهل لبه، من التوافق والتواطؤ، وجزم جزماً، لا يمترى فيه، أنه تنزيل من حكيم حميد (٢).

ومن مظاهر إعجاز نظمه ما اشتمل عليه من الأمثال الرائعة، التى أبدع أيما إبداع فى تركيبها وتوضيحها، وهى دليل ظاهر على إعجازه اللغوى.

ومن مظاهر إعجاز نظم القرآن براعته فى الاستهلال والختم، فقد افتتح القرآن بسورة الفاتحة التى تضمنت الثناء والدعاء، وختم بمثل ما بدأ به، بثلاث سور قصيرة: الإخلاص وهى ثناء، والمعوذتان وهما دعاء.

وهذه البراعة ملحوظة فى سوره، فمثلاً سورة البقرة افتتحت بتعظيم القرآن، ليكون مدخلاً لتقسيم الناس فى موقفهم منه إلى ثلاث طوائف: المؤمنين،

---

(١) انظر: الإتقان فى علوم القرآن للسيوطى ٢ / ٢٣٦.

(٢) تيسير الكريم الرحمن للسعدى صـ٦٤٦.

والكفار، والمنافقين، ثم بعد أن تناولت معظم الأحكام الشرعية وفرضتها، تختم السورة بالإشادة بالمؤمنين، لكمال خضوعهم لحكم الله ورسوله [1].

وخلاصة القول: لقد جاء نظم القرآن على أساليب أبدع مما كان يعهده العرب وأتقن وأحكم وأعجب، ﴿ **كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ** ﴾ [هود: ١].

ثانياً: المعانى.

فإن لم يلهك جمال القشرة البادية عن سامى المعانى المستترة، فكشفت الصدفة عن درها، ونفذت من هذا النظام اللفظي إلى ذلك النظام المعنوي تجلى لك ما هو أبهى وأبهر، ولقيك ما هو أروع وأبدع، ولا تحسبن ذلك الأمر لا يظهر إلا فى مجموع القرآن، بل يظهر ذلك فى القطعة منه، ويظهر فى السورة، وسأعرض لك لمحة سريعة عن هاتين المرتبتين:

أولاً: بيان القرآن فى قطعة قطعة منه.

فمن صفاته:

١) القصد فى اللفظ والوفاء بالمعنى:

وهما طرفان متقابلان الميل لأحدهما ميل عن الآخر، فمن أوجز فى لفظه لا ينفك من أن يحيف على المعنى قليلاً أو كثيراً، ومن يعمد إلى الوفاء بالمعنى وإبراز كل دقائقه لا يجد فى قليل اللفظ ما يشفى صدره، فيسترسل استرسالاً يشعرك بتضاؤل قوة نشاطك واضمحلال باعثة إقبالك، فإن سرك أن ترى كيف تجتمع هاتان الغايتان على تمامهما بغير فترة ولا انقطاع، فانظر حيث شئت من القرآن الكريم، تجد وفاء الألفاظ بحق المعانى، واحتواء المعانى للألفاظ، بحيث لا يستغنى

---

(١) انظر: جوامع كلم القرآن وشواهد الإعجاز، د / عبد العزيز السحيبانى صـــ٣٩ وما بعدها.

معنى عن لفظة، ولا تقصر لفظة عن معنى، كما قال ابن عطية: (لو نزعت منه لفظة ثم أدير لسان العرب في أن يوجد أحسن منها لم يوجد) [1].

٢) خطاب العامة وخطاب الخاصة:

وهما أيضاً غايتان متباعدتان فما تخاطب به الذكي لا تخاطب به الغبي، وما تخاطب به الطفل لا تخاطب به الكبير، أدرك العرب ذلك وسدوا عجزهم عنه بعبارات مثل (لكل مقام مقال) ونحو ذلك. وجاء القرآن الكريم وقد ملك الغايتين، فهو قرآن واحد يراه البلغاء أوفى كلام وأبلغه ،ويراه العامة أحسن كلام وأوضحه.

٣) إقناع العقل وإمتاع العاطفة:

فى كل إنسان قوتان:

أ) قوة تفكير. ب) قوة عاطفة ووجدان.

والقوة الأولى تغوص باحثة عن الحقائق المستترة والمعانى الباطنة، وأما الثانية فتطفو تبحث عن الجمال الظاهر فى القشرة البادية، والنفس الإنسانية إما أن تغوص مع تلك، أو تطفو مع هذه، ولا تستطيع أن تغوص وتطفو فى آن واحد أو لحظة واحدة.

وحين تظهر (قوة الوجدان) تضعف (قوة التفكير) فلا يتقن عقله فكراً، فإن وفى المتكلم بحق العقل بخس حق العاطفة، وإن وفى بحق العاطفة بخس حق العقل، فإما أن يأتى بكلام علمى مجرد يرضي به عقله، أو بكلام أدبى منمق يرضى به عاطفته، حتى بات الناس يقسمون الأساليب إلى نوعين لا ثالث لهما:

أ) أسلوب علمى.

ب) أسلوب أدبى.

---

(١) المحرر والوجيز ١ / ٦٠.

وقسمت الدراسة فى عصورنا هذه إلى علمية أو أدبية، فلا تطمع من إنسان فى أن يهب لك هاتين الطلبتين على سواء وهو لم يجمعهما فى نفسه على سواء، وما كلام المتكلم إلا نتاج قوته إما قوة التفكير وإما قوة الوجدان، وما جعل الله لرجل من قلبين فى جوفه.

حاشا القرآن الكريم الذى جمع (قوة الحقيقة البرهانية) و (قوة المتعة الوجدانية). تدبروا في آيات القرآن الكريم فسترون أنها في معمعة البراهين والأحكام لا تنسى نصيب القلب والوجدان، ذلك أنها كلام الله رب العالمين الذي لا يشغله شأن عن شأن.

٤) البيان والإجمال:

هما أيضاً أمران متقابلان لا يكادان يجتمعان في كلام، إن وجد الأول اضمحل الثاني، وإن وجد الثانى تلاشى الأول، فكلام البشر إما أن يكون مجملاً، وإما أن يكون مبيناً، وأنى له أن يكون مجملاً مبيناً فى آن واحد.

أما القرآن الكريم كلام الله (ﷻ) فالأمر غير ذلك، تقرأ الآية القرآنية فتجد فيها من الوضوح والظهور ما يبوئها الدرجة العليا فى البيان، بأسلوب محكم خال من كل غريب عن الغرض، يسبق معناها إلى نفسك دون كد ذهن ولا إعادة تلاوة، فإن أعدت النظر مرة أخرى لاح لك منها معان جديدة، فإن زدت التدبر زاد العطاء، وانكشف لك ما يجعلك توقن أن فى الآية إجمالاً لمعان عديدة مع بيان ووضوح.

ثانياً: بيان القرآن فى سورة سورة منه.

وهى أيضاً مرتبة من مراتب البيان فى القرآن لها صفات وخصائص أهمها:

الكثرة والوحدة:

فالكلام هو مرآة المعنى فإن ساء نظمه تبددت معانيه، كما تتبدد الصورة الواحدة على المرآة المهشمة أو غير المستوية السطح.

ولابد لإبراز المعنى ووضوحه من إحكام ألفاظه وإتقان بيانه، وذلك بتمام التقارب بين كلماته، والترابط بين جمله، حتى تتماسك وتتعانق أشد ما يكون التماسك، وأقوى ما يكون العناق.

وليس ذلك بالأمر الهين، بل هو مطلب شاق يحتاج إلى مهارة وحذق، ولطف وحس فى اختيار أحسن المواقع لتلك الأجزاء، أيها أحق أن يجعل أصلاً أو تتمة، وأيها أحق أن يبدأ به أو يختم، ثم اختيار أحسن الطرق للمزج بينها بالإسناد أو التعليق أو بالعطف، وغير ذلك من أسباب الترابط، ذلك حال المعنى الواحد الذى تتصل أجزاؤه فيما بينها، فما ظنك بالمعانى المختلفة فى جوهرها، كم تحتاج من المهارة والحذق ؟ ولهذه المشقة نرى كثيراً من البلغاء حين ينتقل من معنى إلى معنى لا يستغنى عن استعمال بعض الأدوات لسد الثغرة التى يحدثها الانفصال بين المعانى من نحو قولهم (وبعد) أو (ونعود) أو (ننتقل إلى الحديث عن) أو (سنتحدث) أو (بقى علينا) ونحو ذلك...

وهذا شأن البلغاء فى الحديث الواحد فى المجلس الواحد، فكيف لو جاء حديثه فى أماكن مختلفة وأزمان متباعدة ؟ ألا تكون سمات الانفصال وظواهر الانقطاع أقوى وأشد ؟.

حاشا القرآن فقد اشتملت السورة منه على وصف، وقصص، وتشريع، وجدل، وعقائد، وأمر، ونهى، ونزلت السورة فى أوقات مختلفة وأزمان متباعدة، ورتبت آياتها بطريقة عجيبة يرسم مكان الآية ويحدد قبل أن تنزل الآية التى قبلها أو التى بعدها، ثم لا يحدث أن تنقل من موضعها إلى آخر، فإذا نزل ما حولها من الآيات رأيت الترابط والتلازم كأنهن قطعة واحدة، بل رأيتهن مع بقية آيات السورة كأنهن سبيكة واحدة، فلا تجد فرقاً، ولا يستبين لك أمر فى معرفة ما نزل من السورة منجماً وما نزل منهن مفرقاً؛ **فجاءت الكثرة الكاثرة من المعانى فى السورة كأنهن معنى واحداً أو آية واحدة محكمة السبك متقنة السرد.**

وللخطابى كلام رائع فى هذا الوجه من الإعجاز – اللغوى– أختم به، قال: (وإنما تعذر على البشر الإتيان بمثله لأمور، منها: أن علمهم لا يحيط بجميع أسماء اللغة العربية وبألفاظها التي هي ظروف المعاني والحوامل، ولا تدرك أفهامهم جميع معاني الأشياء المحمولة على تلك الألفاظ، ولا تكمل معرفتهم لاستيفاء جميع وجوه النظوم التي يكون ائتلافها وارتباط بعضها ببعض، فيتوصلوا باختيار الأفضل عن الأحسن من وجوهها إلى أن يأتوا بكلام مثله، وإنما يقوم الكلام بهذه الأشياء الثلاثة:

١) لفظ حامل. ٢) ومعنى به قائم. ٣) ورباط لهما ناظم.

وإذا تأملت القرآن وجدت هذه الأمور منه في غاية الشرف والفضيلة، حتى لا ترى شيئاً من الألفاظ أفصح ولا أجزل ولا أعذب من ألفاظه، ولا ترى نظماً أحسن تأليفاً وأشد تلاؤماً وتشاكلاً من نظمه. وأما المعاني فلا خفاء على ذي عقل، أنها هي التي تشهد لها العقول بالتقدم في أبوابها، والترقي إلى أعلى درجات الفضل من نعوتها وصفاتها.

وقد توجد هذه الفضائل الثلاث على التفرق في أنواع الكلام، فأما أن توجد مجموعة في نوع واحد منه، فلم توجد إلا في كلام العليم القدير، الذي أحاط بكل شيء علماً، وأحصى كل شيء عدداً).

ثم ذكر بعض ما احتوى عليه القرآن من أحكام التوحيد والعبادة، والتحليل والتحريم، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، والأمر بمحاسن الأخلاق والزجر عن مساوئها، ثم قال: (ومعلوم أن الإتيان بمثل هذه الأمور، والجمع بين شتاتها حتى تنتظم وتتسق، أمر تعجز عنه قوى البشر، ولا تبلغه قُدَرُهم، فانقطع الخلق دونه، وعجزوا عن معارضته بمثله، أو مناقضته في شكله) [١].

(١) انظر: بيان إعجاز القرآن – ضمن ثلاث رسائل فى الإعجاز صـ٢٤، ٢٥.

المبحث الثالث

الإعجاز النفسى (تأثير القرآن ونجاحه)

تميز القرآن عن سائر الكلام بتأثيره فى النفوس، وجذبه القلوب، لسلامة مبانيه، ودقة معانيه، وعذوبة ألفاظه، وسهولة أسلوبه، وكثرة أعاجيبه، وحلاوة الأصوات فى الحروف والكلمات، والمدات والغنات، ولحن غريب، وتوقيع عجيب، خاطب العقل والميول، فتلقاه الناس بالقبول، وهذا التأثير هو ما اصطلح على تسميته – من بين وجوه إعجاز القرآن – بالإعجاز النفسى، وهو موضع عناية المسلمين من قديم، وفيه يقول القاضى عياض مشيراً إلى تأثير القرآن فى النفوس وهو يعد وجوه الإعجاز: (ومنها: الروعة التي تلحق قلوب سامعيه وأسماعهم عند سماعه، والهيئة التي تعتريهم عند تلاوته؛ لقوة حاله، وإنافة خطره، هي على المكذبين به أعظم حتى كانوا يستثقلون سماعه، ويزيدهم نفوراً، ويودون انقطاعه لكراهتهم له، وأما المؤمن فلا تزال روعته به وهيبته إياه مع تلاوته توليه انجذاباً، وتكسبه هشاشة لميل قلبه إليه، وتصديقه به) [(١)].

ويقول الأستاذ سيد قطب فى هذا الصدد: (إن في هذا القرآن سراً خاصاً يشعر به كل من يواجه نصوصه ابتداءً، قبل أن يبحث عن مواضع الإعجاز فيها، إنه يشعر بسلطان خاص في عبارات هذا القرآن، يشعر أن هنالك شيئاً ما وراء المعاني التي يدركها العقل من التعبير، وأن هنالك عنصراً ما ينسكب في الحس بمجرد الاستماع لهذا القرآن، يدركه بعض الناس واضحاً ويدركه بعض الناس غامضاً، ولكنه على كل حال موجود، هذا العنصر الذي ينسكب في الحس يصعب تحديد مصدره، أهو العبارة ذاتها ؟ أهو المعنى الكامن فيها؟ أهو الصور

---

(١) انظر: الشفا بتعريف حقوق المصطفى ١ / ٢٣٠، ٢٣١.

والظلال التي تشعها ؟ أهو الإيقاع القرآني الخاص المتميز عن إيقاع سائر القول المصوغ من اللغة ؟ أهي هذه العناصر كلها مجتمعة ؟ أم أنها هي وشيء آخر وراءها غير محدود ؟! ذاك سر مودع في كل نص قرآني، يشعر به كل من يواجه نصوص هذا القرآن ابتداء، ثم تأتي وتأتى وراءه الأسرار المدركة بالتدبر والنظر والتفكير في بناء القرآن كله) [١].

فلقد بلغ القرآن في تأثيره ونجاحه مبلغاً خرق به العادة في كل ما عرف من كتب الله والناس، وخرج عن المعهود في سنن الله من التأثير النافع بالكلام وغير الكلام.

فدونك هذا الإصلاح العام الذي جاء به القرآن، والانقلاب العالمي الذي تركه هذا الكتاب، ما كان ليحدث في أي عهد من عهود التاريخ قديمه وحديثه إلا على أساس من الإيمان العميق القائم على وجدان قوي، بحيث يكون له من السلطان القاهر على النفوس، والحكم النافذ على الميول، ما يصد الناس عن نهجهم الأول في عقائدهم وعبادتهم وأخلاقهم وعاداتهم، وما يحملهم على اعتناق هذا الدين الجديد الذي هدم تلك الموروثات فيهم، وحارب تلك الأوضاع المألوفة لديهم.

وهذا الأساس الذي لا بد منه تقصر عنه في العادة جميع الكتب التعليمية التي يؤلفها العلماء والمصلحون، وتعجز عن إيجاده كافة القوانين البشرية، لكن القرآن الكريم وحده هو الذي نفخ الإيمان في الكبار والصغار نفخاً، وبثه روحاً عامة، وأشعر النفوس بما جاء فيه إشعاراً، ودفعها إلى التخلي عن موروثاتها جملة، وحملها على التحلي بهديه الكريم علماً وعملاً، على حين أن الذي أتى بهذا القرآن رجل أمي لا دولة له ولا سلطان، ولا اضطهاد ولا إجبار، إنما هو الاقتناع والرغبة، والرضا والإذعان.

---

(١) فى ظلال القرآن ٦ / ٣٣٩٩.

هذا الأساس الذي وضعه القرآن وحده هو سر نهضته، ونور هدايته، والروح الساري لإحياء العالم بدعوته، وذلك عن طريق أسلوبه المعجز الذي هز النفوس والمشاعر، وملك القلوب والعقول، وكان له من السلطان ما جعل أعداءه منذ نزوله إلى اليوم، يخشون بأسه، ويخافون تأثيره، أكثر مما يخافون الجيوش والحروب، لأن سلطانهما لا يعدو هياكل الأجسام، أما سلطان هذا الكتاب فقد امتد إلى حرائر النفوس وكرائم الأرواح، بما لم يعهد له نظير في أية نهضة من النهضات.

ولقد أشار القرآن نفسه إلى هذا الوجه من وجوه إعجازه، حين سمى الله كتابه روحاً من أمره بقوله: ﴿ **وكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا** ﴾[الشورى: ٥٢]، وحين سماه نوراً: ﴿ **قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ** ﴾ [المائدة: ١٥]، وحين وصف بالحياة والنور من آمن به: ﴿ **أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا** ﴾ [الأنعام: ١٢٢].

هذا التأثير الخارق والنجاح الباهر أدركه ولا يزال يدركه كل من قرأ القرآن في تدبر ونصفه، حاذقاً لأساليبه العربية، ملماً بظروفه وأسباب نزوله، أما الذين لم يحذقوا لغة العرب ولم يحيطوا بهذه الظروف، فيكفيهم أن يسألوا التاريخ عما حمل هذا الكتاب من قوة غيرت صورة العالم، عن طريق استيلائها على قلوب المخاطبين به لأول مرة استيلاءً أشبه بالقهر وما هو بالقهر، سواء في ذلك أنصاره وأعداؤه [١].

قال الشيخ محمد الغزالي: (ما أظن امرأ سليم الفكر والضمير يتلو القرآن أو يستمع إليه ثم يزعم أنه لم يتأثر به. قد تقول: فَلِمَ يتأثر به ؟ والجواب: أنه ما من هاجس يعرض للنفس الإنسانية من ناحية الحقائق الدينية إلا ويعرض القرآن له

(١) انظر: مناهل العرفان للزرقانى ٢ / ٤٠٥ – ٤٠٧.

بالهداية وسداد التوجيه.... إن القرآن الكريم بأسلوبه الفريد يرد الصواب إلى أولئك جميعاً، وكأنه يعرف ضائقة كل ذي ضيق، وزلة كل ذي زلل، ثم تكفل بإزاحتها كلها، كما يعرف الراعي أين تاهت خرافه، فهو يجمعها من هنا وهناك، لا يغيب عن بصره ولا عن عِطْفِهِ واحد منها حتى الذين يكذبون بالقرآن ويرفضون الاعتراف بأنه من عند الله.. إنهم يقفون منه مثلما يقف الماجن أمام أب ثاكل! قد لا ينخلع من مجونه الغالب عليه، ولكنه يؤخذ فترة ما بصدق العاطفة الباكية، أو مثلما يقف الخلي أمام خطيب يهدر بالصدق، ويحدث العميان عن اليقين الذي يرى ولا يرون.. إنه قد يرجع مستهزئا، ولكنه يرجع بغير النفس التي جاء بها) (١).

(هذا التأثير النفسي هو من أظهر خصائص القرآن الكريم التي تبرز عند سماعه، فيمضي سامعه في تفكير يملك عليه أقطار نفسه، فيفضي به إلى الإيمان إذا صفت نفسه واستقامت فطرته، أو يفضي به إلى مزيد من العناد يدفع به هذا التأثير الغالب خشية الاقتناع به، إذا كان السامع غليظ القلب، جاحداً للحق، مظلم النفس، وعندها يأتي من أبواب التدليس والكذب ما يعلل به هذا العناد) (٢).

ولكل مما ذكرنا مما يفضي إليه تأثير القرآن في نفوس سامعيه أمثلة (٣):

أولاً: تأثيره فى أعدائه.

أما أعداؤه المشركون، فقد ثبت أنه جذبهم بقوته فى مظاهر كثيرة، منها:

---

(١) نظرات فى القرآن صـــ١٢٧، ١٢٨، دار الكتب الحديثة، ط ٣.

(٢) عناية المسلمين، د / محمد جبريل صـــ٢٩٣.

(٣) انظر: مناهل العرفان للزرقانى ٢ / ٤٠٧ وما بعدها.

١) أنهم مع حربهم له، ونفورهم مما جاء به، كانوا يخرجون فى جنح الليل البهيم يستمعون إليه والمسلمون يرتلونه فى بيوتهم، فهل ذاك إلا لأنه استولى على مشاعرهم؟! ولكن أبى عليهم عنادهم للحق أن يؤمنوا به.

٢) أن أئمة الكفر منهم كانوا يجتهدون في صد رسول الله ﷺ عن قراءته في المسجد الحرام وفي مجامع العرب وأسواقهم، وكذلك كانوا يمنعون المسلمين من إظهاره، حتى لقد هالهم من أبي بكر أن يصلي به في فناء داره، وذلك لأن الأولاد والنساء كانوا يجتمعون عليه يستمتعون بلذة هذا الحديث، ويتأثرون به ويهتزون له.

٣) أنهم ذعروا ذعراً شديداً من قوة تأثيره ونفوذه إلى النفوس على رغم صدهم عنه واضطهادهم لمن أذعن له، فتواصوا على ألا يسمعوه، وتعاقدوا على أن يلغوا فيه إذا سمعوه ﴿ **وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ** ﴾ [فصلت: ٢٦]

٤) أخرج الحاكم وصححه عن ابن عباس أن الوليد بن المغيرة جاء إلى النبي ﷺ، فقرأ عليه القرآن، فكأنه رق له، فبلغ ذلك أبا جهل، فأتاه فقال: يا عم إن قومك يرون أن يجمعوا لك مالا، قال: لم؟ قال: يعطونكه، فإنك أتيت محمدا لتعرض لما قبله، قال: قد علمت قريش أنى من أكثرها مالاً، قال: فقل فيه قولاً يبلغ قومك أنك منكر له وأنك كاره له، قال: وماذا أقول؟ فوالله ما فيكم رجل أعلم بالأشعار مني، ولا أعلم برجزه ولا بقصيدة مني، ولا بأشعار الجن، والله ما يشبه الذي يقوله شيئاً من هذا، ووالله إن لقوله لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإنه لمثمر أعلاه، مغدق أسفله، وإنه ليعلو وما يعلى، وإنه ليحطم ما تحته، قال: لا يرضى عنك قومك حتى تقول فيه، قال: فدعني حتى أفكر، فلما فكر قال: هذا سحر يؤثر يأثره عن غيره، فنزلت ﴿ **ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا. وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَمْدُودًا** ﴾ إلى قوله

تعالى: ﴿ إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ. فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ. ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ. ثُمَّ نَظَرَ. ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ. ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ. فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴾ [المدثر: ١١–٢٤].

(٥) ذكر السيوطي أن عتبة بن ربيعة جاء إلى النبي ﷺ وكلمه إياه فيما جاء به قومه مما يخالف ما هم عليه، وأن النبي ﷺ تلا عليه سورة فصلت إلى قوله تعالى: ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴾ وعند ذلك أمسك عتبة بيده على فم رسول الله ﷺ وناشده الرحم أن يكف، وأنه قام لا يدري بما يراجع رسول الله ﷺ، ورجع إلى أهله ولم يخرج إلى قومه حتى أتوه فاعتذر لهم وقال: والله لقد كلمني بكلام، والله ما سمعت أذناي بمثله قط، فما دريت ما أقول له [١]. وعاند عتبة وظل على كفره، وكان من قتلى المشركين في بدر.

ثانياً: تأثير القرآن فى نفوس أوليائه.

لتأثير القرآن فى نفوس أوليائه مظاهر متعددة، منها:

١) تنافسهم في حفظه وقراءته، حتى لقد طاب لهم أن يهجروا لذيذ منامهم ليتهجدوا به في الأسحار، وكان المار على بيوت الصحابة بالليل يسمع لها دوياً كدوي النحل بالقرآن، وكان التفاضل بينهم بمقدار ما يحفظ أحدهم من القرآن، بل كانت المرأة تغتبط أن يكون مهرها سورة من القرآن يعلمها إياها زوجها !.

٢) عملهم به في كل شأن من شئونهم، تاركين كل ما كانوا عليه مما يخالف تعاليمه، طيبة بذلك نفوسهم، حتى صهرهم القرآن في بوتقته، وأخرجهم للعالم خلقاً آخر.

---

(١) انظر: الدر المنثور ٧ / ٣١٠، ٣١١.

٣) استبسالهم في نشر القرآن والدفاع عنه وعن هديه، فأخلصوا له، وصدقوا ما عاهدوا الله عليه، فمنهم من قضى نحبه وهو مدافع عنه، ومنهم من عاش وهو مجاهد في سبيله مضحٍ بنفسه ونفيسه.

٤) ذلك النجاح الباهر الذي أحرزه القرآن في هداية العالم، وإحداث تلك النهضة الرائعة في العقائد والأخلاق، في العبادات والمعاملات، في السياسة والإدارة، وفي كافة نواحي الإصلاح الإنساني، أحيا القرآن موات الأمة العربية في أقل من عشرين سنة، ونفخ فيهم من روحه، فهبوا ينقذون العالم، ففتحوا ملك كسرى وقيصر، ووضعوا رجلاً في الشرق ورجلاً في الغرب، وخفقت رايتهم على نصف المعمورة في أقل من قرن ونصف قرن من الزمان.

إن الأثر الذي يحدثه القرآن أعظم من أن تقوم له من الأرض جبالها الرواسي ﴿ **لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ** ﴾ [الحشر:٢١].

وفي طبيعة هذا الأثر لدى المؤمنين جاء قول الله تعالى: ﴿ **اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ** ﴾ [الزمر:٢٣]. وفي طبيعته لدى المعاندين جاء قول الله تعالى: ﴿ **وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلا نُفُورًا** ﴾ [الإسراء:٤١]. وفي كليهما على طريق المقابلة جاء قول الله تعالى: ﴿ **وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلا خَسَارًا** ﴾ [الإسراء:٨٢].

هذا هو أثر القرآن تنطق به آياته المباركة، وينطق به كذلك واقع الناس في كل وقت، ومازلنا نشاهد هذا الأثر في نفوس سامعيه: خشوعاً وخضوعاً للحق إذا صفت الفطرة واستقامت النفوس، وخوفاً من سطوة هذا الأثر إذا أظلمت

القلوب وأصرت على الكفر، فتتخذ حينئذ من أجل ذلك وسائل تحول بينها وبين هذا التأثير، قال الله تعالى: ﴿ **وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ** ﴾ [فصلت: ٢٦] (١).

وهكذا نرى أن قوة تأثير القرآن فى القلوب، واستيلاءه على النفوس، وامتلاكه زمام المرء وجهاً من أوجه الإعجاز فى ذلك الكتاب العزيز، الذى أودع الله تعالى فيه من الأسرار والحكم ما لا يقف عند حد، ونقف مخبتين ونحن نتلو آياته البينات، وبراهينه الظاهرات: ﴿ **اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ** ﴾ [الزمر: ٢٣].

****

(١) انظر: عناية المسلمين، د / محمد جبريل صـــ٢٩٧.

المبحث الرابع
الإعجاز التشريعى للقرآن الكريم

والمراد بهذا الوجه من الإعجاز ذلكم "التشريع" الذي جاء به القرآن الكريم الشامل الكامل المحكم المتقن.

(شامل) لكافة أوجه التشريع سواء ما يتعلق منها بالفرد أو بالمجتمع، وسواء أكان في العقيدة، أو العبادة، أو المبادئ والأخلاق، أو الاجتماع، أو الاقتصاد، أو السياسة، في السلم أو الحرب، في السفر أو الحضر، في الليل أو النهار.

(كامل) لاستيفائه لدقيق المسائل وجليلها، وصغيرها وكبيرها.

(محكم متقن) لا نقص فيه ولا عيب، ولا قصور ولا خلل.

أحكم تشريع، وأكمل نظام، عجز البشر ولا زالوا عاجزين عن الإتيان بمثل تشريعه، أو بمثل سياسته، فحين ننظر في التشريعات البشرية نرى البون الشاسع بين هذا وذاك، مما يكشف لنا وجه الإعجاز التشريعي في القرآن الكريم.

فهذا التشريع بشموله وكماله وإحكامه أكبر من أن تحيطبه العقول البشرية في جيل واحد، أو في مجموعة من الأجيال، فضلاً عن أن يحيط به عقل بشري واحد في جيل واحد [1].

وهذا الجانب التشريعى دليل وأى دليل على أن هذا الكتاب ليس من عند البشر، وإنما هو من عند خالق القوى والقدر.

إن تشريع القرآن الكريم يشمل كل نواحى الحياة الإنسانية، ويعم الناس جميعاً، فى زمن نزوله وبعده إلى أبد الدهر، هو تشريع معجز للبشر فى سموه ورفعته وعدالته. ولا عجب فقد تناول تشريع القرآن جوانب الحياة جميعاً بما فيه سعادة البشرية وصلاحها، ما يتعلق بالفرد والأسرة والمجتمع والحكم والعلاقات

---

(١) انظر: دراسات فى علوم القرآن، د / فهد الرومى صـــ٢٩٩.

الدولية، وكل ما يخطر بالبال من نواحى الحياة، قال تعالى: ﴿ **مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ** ﴾ [الأنعام: ٣٨].

قال الشنقيطى عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿ **إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا** ﴾ [الإسراء:٩]: (وهذه الآية الكريمة أجمل الله جل وعلا فيها جميع ما في القرآن من الهدى إلى خير الطرق وأعدلها وأصوبها، فلو تتبعنا تفصيلها على وجه الكمال لأتينا على جميع القرآن العظيم، لشمولها جميع ما فيه من الهدى إلى خيري الدنيا والآخرة، ولكننا إن شاء الله تعالى سنذكر جملاً وافرة في جهات مختلفة كثيرة من هدى القرآن للطريق التي هي أقوم بياناً لبعض ما أشارت إليه هذه الآية الكريمة، تنبيهاً ببعضه على كله من المسائل العظام، والمسائل التي أنكرها الملحدون من الكفار، وطعنوا بسببها في دين الإسلام لقصور إدراكهم عن معرفة حكمها البالغة) (١).

وقال الزرقانى: الوجه الرابع من الإعجاز: وفاؤه بحاجات البشر، ومعنى هذا أن القرآن الكريم جاء بهدايات تامة كاملة تفي بحاجات البشر في كل عصر ومصر، وفاءً لا تظفر به في أي تشريع آخر، ويتجلى لك هذا إذا استعرضت المقاصد النبيلة التي رمى إليها القرآن في هدايته، ومنها ما يأتي:

١) إصلاح العقائد عن طريق إرشاد الخلق إلى حقيقة المبدأ والمعاد وما بينهما، تحت عنوان الإيمان بالله تعالى وملائكته ورسله واليوم الآخر، عقيدة سهلة خالية من التعقيد، ملائمة للفطرة التى فطر الله الناس عليها، تملأ النفس طمأنينة،

(١) أضواء البيان ٣ /٤٠٩، وبالفعل ساق العلامة الشنقيطى من ذلك مسائل متعددة ذكر فيها هدى القرآن للتى هى أقوم وأعدل فى مجالات متعددة لا يتسع المقام لذكرها.

والقلب نوراً، والعقل قناعة، بأسلوب عذب رائق لابد لتاليه أو سامعه من أن يذعن لنداء الفطرة، ومقالة الحق بأنه تنزيل من حكيم حميد.

٢) إصلاح العبادات عن طريق إرشاد الخلق إلى ما يزكي النفوس، ويغذي الأرواح، ويقوم الإرادة، ويفيد الفرد والمجموع منها.

٣) إصلاح الأخلاق عن طريق إرشاد الخلق إلى فضائلها، وتنفيرهم من رذائلها في قصد واعتدال، وعند حد وسط لا إفراط فيه ولا تفريط. وإذا كانت العقائد تشكل أركان الصرح الإسلامى، فإن التشريعات تكون تقسيمات حجراته ومداخله، والأخلاق تضفى الجمال والبهاء على البناء المكتمل.

٤) إصلاح الاجتماع عن طريق إرشاد الخلق إلى توحيد صفوفهم وإزالة الفوارق التي تباعد بينهم، وذلك بإشعارهم أنهم من نفس واحدة، وأنه لا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى، وأنهم متساوون أمام الله وتشريعه، متكافئون في الحقوق والتبعات من غير استثناءات، وأن الإسلام عقد إخاء بينهم أقوى من إخاء النسب، وأنهم أمة واحدة يؤلف بينها المبدأ ولا تفرقها الحدود الإقليمية.

٥) إصلاح السياسة عن طريق تقرير العدل المطلق بين الناس، والوفاء بالعهود والرحمة والمحبة، واجتناب الرذائل من الظلم، ونقض العهود، والكذب، والخيانة، وأكل أموال الناس بالباطل.

٦) الإصلاح المالي عن طريق الدعوة إلى الاقتصاد، وحماية المال من الضياع، ووجوب إنفاقه في وجوه البر،وأداء الحقوق الخاصة والعامة، والسعي المشروع.

٧) الإصلاح النسائي عن طريق حماية المرأة واحترامها، وإعطائها جميع الحقوق الإنسانية والدينية والمدنية.

٨) الإصلاح الحربي عن طريق تهذيب الحرب ووضعها على قواعد سليمة لخير الإنسانية في مبدئها وغايتها، ووجوب التزام الرحمة فيها والوفاء بمعاهداتها، وإيثار السلم عليها.

٩) محاربة الاسترقاق في المستقبل، وتحرير الرقيق الموجود بطرق شتى.

١٠) تحرير العقول والأفكار، ومنع الإكراه والسيطرة الدينية القائمة على الاستبداد ﴿ **فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ. لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ** ﴾ [الغاشية: ٢١، ٢٢] (١).

وهذا إجمال جدير بنا أن نفصله بإشارات سريعة تبين ما فى شريعة القرآن من إحكام ويسر ودقة، فنقول: إن منهج القرآن فى التشريع يقوم على أسس، منها:

أولاً: تربية الفرد:

ومن شأن كل بناء أن يبدأ بالقطع الصغيرة يصفها بعضها إلى بعض حتى يصبح بناء عظيمًا، والأفراد هم لبنات المجتمعات. وتهذيب الأفراد وتربيتهم تأسيس لبناءمحكم، ومن أسس هذه التربية:

١) تطهير قلبه من أدران الشرك:

ببيان أن هذه الأوثان لا تضر ولا تنفع فلا تستحق العبادة، ووبخهم وشنع عليهم: ﴿ **قُلْ أَنَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنْفَعُنَا وَلا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ** ﴾ [الأنعام: ٧٦] وقال تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ** ﴾ [الحج: ٧٣] وقال

(١) انظر: مناهل العرفان ٢ / ٣٥١، ٣٥٢، وانظر منه ٢ / ٣٦١ – ٣٦٦.

سبحانه: ﴿ أَيُشْرِكُونَ مَا لا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ. وَلا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ. وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ. إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ. أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلا تُنْظِرُونِ ﴾ [الأعراف: ١٩١– ١٩٦]، وهكذا في آيات كثيرة كشف أحوال هذه الأوثان التي يدعونها من دون الله وبسط الأدلة على عدم استحقاقها للعبادة، فطهر قلوبهم من أدران الشرك.

٢) غرس عقيدة التوحيد:

وبعد أن نزع منهم عقيدة الشرك غرس في الأرض الطيبة عقيدة طيبة، وبعد أن نزع من قلوبهم عبادة الأصنام دعا إلى عبادة الله وحده لا شريك له، مثبتًا استحقاقه سبحانه للعبادة وحده دون سواه: ﴿ اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُسَمّىً يُدَبِّرُ الأَمْرَ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ. وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الرعد: ٢ – ٤] وقال سبحانه: ﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى. الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى. وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى. وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى ﴾ [الأعلى ١– ٤] ثم بين الوحدانية: ﴿ وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لا إِلَهَ إِلا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴾ [البقرة:١٦٣] ﴿ إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ ﴾ [الصافات: ٥].

وحذر من أن يشرك به: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا ﴾ [النساء: ٤٨] ﴿ لَقَدْ

كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلا إِلَهٌ وَاحِدٌ ﴾ [المائدة: ٧٤] ﴿ **لا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَخْذُولا** ﴾ [الإسراء: ٢٢].

وإذا كان سبحانه إلهًا واحدًا لا شريك له فالعبادة حق له سبحانه وحده ويجب الإذعان والإسلام له: ﴿ **فَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا** ﴾ [الحج: ٣٤] ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا أَنَا فَاعْبُدُونِ** ﴾ [الأنبياء: ٢٥] ﴿ **وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ** ﴾ [الأنبياء: ٩٢].

٣) **التربية بالعبادة:**

وانتقل القرآن بالفرد من صحة العقيدة إلى صحة العبادة؛ فشرع العبادات التي تهذب سلوك الفرد، وتربطه بربه في كل شئونه، ومنها:

أ) **الصلاة:** وهي صلة بين العبد وربه، وتنهى عن الفحشاء والمنكر، وهي لقاء يومي بين المسلم وإخوانه خمس مرات، ولقاء أسبوعي مع آخرين منهم في يوم الجمعة، ولقاء سنوي كالعيدين، وهي مدعاة للترابط والشعور بالمسئولية المشتركة في بعضها كصلاة الكسوف والاستسقاء.

وهي علاج لما نلاحظه في عصرنا هذا من تفكك اجتماعي بين الجيران حيث لا يكاد الجار يعرف جاره، أرأيتم لو كان هؤلاء الجيران يلتزمون بهذه الشعيرة بأدائها في مسجد واحد خمس مرات في اليوم هل سينكر بعضهم بعضًا، أو يقع بينهم هذا التقاطع.

ب) **الزكاة:** وهي تطهير للنفس من الشح، وكبح للنفس في لهاثها خلف المادة، وتعليم أن المال وسيلة وليس بغاية، وتربية للنفس على الإحساس بمعاناة إخوانه المسلمين ومواساتهم.

جـ) **الصيام:** وهو كبح لجماح النفس عن شهواتها، وترويض لها على الصبر على الطاعات، والاعتدال في الملذات، حتى يسهل انقيادها لصاحبها، فلا تجمح به إن رام خيرًا، أو تشرد به إلى الآفات.

وهو أيضًا تذكير للمسلم بحالة إخوانه المحتاجين، فإن كان المانع له عن الأكل في هذا الشهر هو التعبد فهناك من يمنعهم طول العام مانع آخر هو الفقر.

د) **الحج:** وهو عبادة مالية، بدنية، وفي الأولى بذل للمال، وفي هذا مثل ما في الزكاة، وفي الثانية تربية للنفس على تحمل المشاق، وترك ما اعتادت في إقامتها من دعة وتعويد لها على الصبر، ولا تخفى آثار ذلك وفوائده.

وهو فوق هذا لقاء سنوي بين المسلمين من شتى أقطار الأرض يتفقد فيه بعضهم أحوال بعض؛ فيشعر بالأخوة الإسلامية بأبعادها ويعاني بعض معاناتهم.

٤) التربية بتهذيب السلوك:

وبعد تنقية القلب من أدران الشرك، وغرس العقيدة الصحيحة، وتوثيق الصلة بين العبد وربه، رسم بحكمة العلاقة بين العباد وجعلها تقوم على المحبة ونهى عن كل ما يؤدي إلى ضعفها، ونرى معالم هذه التربية في صور، منها:

أ) **تزكية النفس:** وذلك يكون بإلزامها بالآداب الحميدة والأخلاق الفاضلة فأمر بالصبر: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا...** ﴾ [آل عمران: ٢٠٠].

وأمر بالصدق: ﴿ **مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ** ﴾ [الأحزاب: ٢٣] ﴿ **أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ** ﴾ [البقرة: ١٧٧].

وأمر بالعدل والإحسان: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى** ﴾ [النحل: ٩٠] ونهى عن الأخلاق السيئة كالتبختر ورفع الصوت: ﴿ **وَلا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلا تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ. وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ** ﴾ [لقمان: ١٨، ١٩].

وأمر بغض البصر وحفظ الفرج: ﴿ **قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ** ﴾ [النور: ٣٠].

ب) **توثيق أواصر الصلة بين العباد:**

﴿ **وَوَصَّيْنَا الإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا** ﴾ [الأحقاف: ١٥] وأمر بالتآخي: ﴿ **إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ** ﴾ [الحجرات: ١٠] وبالتعاون: ﴿ **وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلا تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ** ﴾ [المائدة: ٢] وأمر بأداء الأمانة والعدل: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ** ﴾ [النساء: ٥٨] .

جـ) **نهى عن كل ما يؤدي إلى الفرقة والاختلاف:**

فنهى عن السخرية: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ...** ﴾ الآية [الحجرات: ١١] ونهى عن سوء الظن والغيبة والتجسس: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلا تَجَسَّسُوا وَلا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ** ﴾ [الحجرات: ١٢] ونهى عن شهادة الزور وقول الزور: ﴿ **وَالَّذِينَ لا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا** ﴾ [الفرقان: ٧٢].

وبهذا يكتمل بناء الفرد ويصبح لبنة صالحة لبناء أسرة صالحة، قائمة على أسس ثابتة، وقواعد راسخة.

ثانيًا: بناء الأسرة.

ومن بناء الفرد إلى بناء الأسرة المترابطة وشرع لها نظامها، فمن ذلك:

أ) **الزواج:** وهو الطريق الصحيح إلى بناء الأسرة، ولأهمية هذا الأمر وحتى يجد الناس كلهم الدافع القوي لذلك، جعل غريزة الجنس من أقوى الدوافع لسلوكه فهذبها بالزواج وحفظها بالآداب.

وبين ما للزوج على زوجته من حقوق وما للزوجة على زوجها من حقوق: ﴿ **وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ** ﴾ [البقرة: ٢٢٨].

وجعل القوامة للرجل: ﴿ **الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ** ﴾ [النساء: ٣٤] والقوامة هنا لا تعني التسلط، ولو أدركت النساء في عصرنا هذا معنى القوامة لطالبن الرجال بالقوامة عليهن وأدائها، وحق لهن ذلك.

ب) **تربية الأولاد:** ومن أسس بناء الأسرة تربية الأولاد، فهم أمانة في أعناق الآباء، لهم حقوقهم في حسن التربية والرعاية، حتى وهو في بطن أمه المطلقة.

جـ) **بر الوالدين:** وكما أمر الآباء بأداء حق الأولاد أمر الأبناء أيضًا ببر الوالدين وأوصى بذلك: ﴿ **وَوَصَّيْنَا الإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا** ﴾ [الأحقاف: ١٥].

فإذا أدى الزوج حق زوجته، وأدت الزوجة حق زوجها، وأدى الابن حقوق والديه، وأدى الآباء حقوق الأبناء أصبحت الأسرة مترابطة تصلح لبناء مجتمع قوي.

ثالثًا: بناء المجتمع.

وإذا كان بناء الأسر يقوم على بناء الأفراد، فإن بناء المجتمعات يقوم على هذه الأسر، وقد رسم القرآن نظام هذا المجتمع فشرع لذلك:

١) **الحكومة الإسلامية:**

إذ لا يستقيم لمجتمع أن يظل على ترابطه ما لم يكن له حكومة تسوسه، وتتفقده، وتنظم شئونه، وجعل لهذه الحكومة قواعدها، فمن ذلك:

أ) **الشورى:** وقد أمر الله بذلك نبيه ومن باب أولي ولاة الأمر من بعده ﴿ **وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ** ﴾ [آل عمران: ١٥٩] ولأهمية الشورى سميت سورة كاملة باسمها.

ب) **الحكم بما أنزل الله:** ويجب على هذه الحكومة أن تحكم بما أنزل الله: ﴿ **وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ** ﴾ [المائدة: ٤٤] ﴿ **وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ** ﴾ [المائدة: ٤٥] ﴿ **وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ** ﴾ [المائدة: ٤٧].

جـ) **العدل:** الذي لا يفرق بين حاكم ومحكوم، وكبير وصغير، وغني وفقير، إلا بالتقوى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا** ﴾ [النساء: ١٣٥].

وهو عدل لا يتأثر بغضب أو كره أو حقد: ﴿ **وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى** ﴾ [المائدة: ٨].

د) **المحافظة على الكليات الخمس:** وعلى الحكومة الإسلامية المحافظة على الكليات الخمس وهي " النفس، الدين، العرض، المال، العقل" ففي النفس القصاص: ﴿ **وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الأَلْبَابِ** ﴾ [البقرة: ١٧٩]. وفي العرض: ﴿ **الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ** ﴾ [النور: ٢] ﴿ **وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً** ﴾ [النور: ٤]. وفي المال: ﴿ **وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا** ﴾ [المائدة: ٣٨]. وحرم ما يزيل العقل ولو إلى حين كشرب الخمر، وفي الدين حرم الردة عن دين الله، وأوجب الله في هذا وذاك العقوبات الصارمة.

هـــ) تنظيم العلاقات الدولية: وعلى الحكومة الإسلامية أن تنظم علاقات هذا المجتمع الإسلامي بالمجتمعات الأخرى في حالة الحرب والسلم وما يتعلق بذلك من تشريع الجهاد وتنظيمه، والمعاهدات وغيرها.

٢) ومما شرعه القرآن لبناء المجتمع السمع والطاعة لولي الأمر:

﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ....** ﴾ [النساء: ٥٩] وفى الآية حث على الطاعة لما في العصيان من أثر سيئ ليس على الفرد بل على بناء المجتمع كله.

٣) تحريم الخروج على جماعة المسلمين:

وكما حرم القرآن الكريم الخروج على ولي الأمر ما لم نر كفرًا بَوَاحًا حرم الخروج على جماعة المسلمين: ﴿ **وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلا تَفَرَّقُوا...** ﴾ الآية [آل عمران: ١٠٣].

وبهذا كله يتم بناء المجتمع وترابطه وقوته، ويصبح للمسلمين شأن عظيم.

بهذا المنهج التشريعي الحكيم جاء القرآن الكريم، فدرسه العلماء وتدبروه، وخرجوا بنتيجة واحدة هي أن في تشريعه إعجازًا لا يمكن للبشر أن يخترعوه: ﴿ **كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ** ﴾ [هود: ١].

****

المبحث الخامس
الإعجاز العلمى فى القرآن الكريم

القرآن الكريم كلام الله، والكون كله من خلق الله، ولا يشك مؤمن فى التطابق التام بين كلام الله تعالى وبين حقائق هذا الكون العلمية التى بلغت يقين المعاينة والمشاهدة، ضرورة أن خالق الكون هو منـــزل القرآن الكريم، ولن يكون تناقض أبدا بين قول الله تعالى وبين خلقه: ﴿ **أَلاَ يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ** ﴾ [الملك:١٤]، ﴿ **قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا** ﴾ [الفرقان:٦].

في القرآن الكريم ما يزيد على ألف آية تتحدث عن معالم هذا الكون ومفرداته من: السموات والأرض، والشمس والقمر، والجبال والبحار، والمطر والرعد والبرق... وإذا كان القرآن الكريم قد ذكر معالم الكون في سياق بيان قدرة الله في الخلق، دلالة على تفرده سبحانه بالألوهية والربوبية، ومن ثم إثبات البعث بعد الموت الذي أنكره الكفار؛ فإنه مع ذلك صاغها في أسلوب وعبارة تفتح أمام العقل البشرى آفاقا رحبة للتفكير في دلالتها عبر الأزمان المتعاقبة من بعد نـــزول القرآن الكريم، فيقوم لديه من هذه الدلالات في كل عصر ما يشهد بالحق الذي جاءت به.

ولا ريب أن المؤمن حين يقرأ اكتشافاً علمياً جديداً أثبته العلماء بالبرهان القاطع، ثم يجد ذلك مذكوراً في القرآن أو ما يوافقه، فإنه يشعر بزيادة الطمأنينة القلبية كالتي طلبها خليل الرحمن إبراهيم (عليه السلام)، وبفرح وسرور كفرح رسول الله ﷺ بحديث تميم الدارى عن الجساسة [(١)].

(١) حديث الحساسة أخرجه مسلم فى كتاب الفتن، باب قصة الجساسة ١٨ / ٧٨.

وفي عصرنا الذي نعيشه، وفي غضون عشرات قليلة من السنين، وبالقياس إلى تاريخ البشرية الممتد وصلت المكتشفات العلمية المتعلقة بالكون في آفاقه، وفي أنفس مخلوقاته ما لم تصل إليه من قبل.

وانطلاقاً من اهتمام المسلمين بكتاب ربهم تبارك وتعالى، فإن علماءهم في هذا المجال بدؤوا يمعنون النظر في هذه الآيات، ويتلمسون فيها من جوانب القدرة – فيما أشارت إليه–ما يعد جانباً من جوانب الإعجاز القرآني، يصلح لدعوة الناس إلى دين الله سبحانه، في زمن فتن الناس فيه بالعلم، وبما تحقق من منجزاته فتنة عظيمة، وهذا ما يطلق عليه– من جوانب الإعجاز القرآني– الإعجاز العلمي [1].

لكن هذه المقارنة أو التوفيق بين النص القرآني الكريم والاكتشاف العلمي الجديد ينبغي أن تكون له ضوابطه وأن تكون له موازينه. ولهذا وقع الاختلاف بين العلماء فى التفسير العلمى للقرآن الكريم بين مؤيد ومعارض، وقبل ذكر أقوال أهل العلم فى التفسير العلمى أعرف به أولا.

قال الدكتور فهد الرومى: (يراد بالتفسير العلمي:" اجتهاد المفسر في كشف الصلة بين آيات القرآن الكريم ومكتشفات العلم التجريبي والربط بينهما بوجه من الوجوه " وهذا تعريفه بما هو عليه، أما تعريفه بما ينبغي أن يكون عليه فهو: " كشف الصلة بين النصوص القرآنية وحقائق العلم التجريبي ".

والفرق بينهما أن في الأول خلطاً بين النظريات والحقائق بحيث تجد كثيراً من المفسرين يفسرون القرآن بهما من غير تحقيق، وما ينبغي أن يكون هو التمييز بين

---

(١) انظر: عناية المسلمين، د/جبريل صـــ٣٠٣، ٣٠٤، ودراسات فى علوم القرآن، د/الرومى صـــ٢٨٩.

النظريات والحقائق والاقتصار على الثانية دون الأولى في تفسير القرآن الكريم) [1].

أقوال العلماء فى التفسير العلمي للقرآن الكريم [2]:

مما لا شك فيه أن مثل هذا اللون من التفسير فى جدته وتجدده سيكون له خصوم وأنصار، يلتمس كل منهم دليلاً، ينصر به رأيه، ثم يكر على دليل الخصم فيبطله.

وقد كان هذا الأمر في التفسير العلمي للقرآن الكريم منذ لحظات بزوغه، ونحن وإن كنا لا نعرف هذا الحدث باليوم أو بالسنة إلا أن العلماء اتفقوا على أن الغزالي المتوفى سنة (٥٠٥هـ) من أوائل المتكلمين في هذا النوع من التفسير، وعلى هذا فيكون ظهوره على وجه التقريب في أواخر القرن الخامس الهجري، واتفقوا أيضًا على أن الغزالي نفسه أكثر من استوفى بيان هذا القول إلى عهده.

ومما لا شك فيه أن الغزالي لم يكن وحيدًا في الميدان يجول ويصول، فقد نزل معه أنصار ونازله خصوم، وما زالت المعركة قائمة لم يهدأ لها بال، ولم تقعد لها قائمة، وانقسموا إلى فريقين أو ثلاثة:

١) المؤيدون للتفسير العلمي. ٢) المعارضون. ٣) المعتدلون.

---

(١) دراسات فى علوم القرآن صـ٢٨٩.

(٢) انظر فى هذه المسألة: اتجاهات التفسير فى القرن الرابع عشر، د / فهد الرومى ٢ / ٥٥٠ وما بعدها، وخصائص القرآن له: ٧٥ - ٧٧، دراسات فى علوم القرآن له: صـ٢٩٠ وما بعدها، والتفسير العلمى للقرآن الكريم، د / عبد الله الأهدل صـ١٨٥ وما بعدها، وبحث د /محمد الشايع، التفسير بمكتشفات العلم التجريبى صـ٢٨ وما بعدها، بمجلة جامعة الإمام، العدد الرابع ١٤١١هـ، والتفسير والمفسرون، د/الذهبى ٣/١٤٠، والتفسير معالم حياته لأمين الخولى صـ٢٠، ولمحات فى علوم القرآن صـ٢٨٩.

المؤيدون للتفسير العلمي:

ومن المؤيدين للتفسير العلمي الغزالي، الرازي، الزركشي، السيوطي، البيضاوي، النيسابوري، ومن المعاصرين الألوسي، وطنطاوي الجوهري، والكواكبي، ومحمد فريد وجدي، والرافعي، والقاسمي وغيرهم.

من أدلة المؤيدين للتفسير العلمي:

استدل المؤيدون للتفسير العلمي بأدلة كثيرة، منها:

١) الاستدلال بظاهر عموم بعض الآيات:

كقوله تعالى: ﴿ **مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ** ﴾ [الأنعام: ٣٨] وقوله سبحانه: ﴿ **وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ** ﴾ [النحل: ٨٩] وقوله تعالى: ﴿ **أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ** ﴾ [ق: ٦] وقوله سبحانه: ﴿ **سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ** ﴾ [فصلت: ٥٢] وغير ذلك من الآيات الداعية إلى التفكر في خلق الله عز شأنه.

٢) الاستدلال بظاهر عموم بعض الأحاديث والآثار:

كحديث: أن رسول الله ﷺ قال: "ستكون فتن، قيل: وما المخرج منها؟، قال: كتاب الله، فيه نبأ ما قبلكم وخبر ما بعدكم... " الحديث (١).

---

(١) رواه الترمذي فى كتاب فضائل القرآن، باب فضل القرآن ٥ /١٧٢، وقال: " هذا حديث لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وإسناده مجهول وفي الحارث مقال " وتعقبه ابن كثير في فضائل القرآن: صــ١١، فقال: "... بل قد رواه محمد بن إسحاق عن محمد بن كعب القرظي عن الحارث الأعور.. ثم قال.. وهو كلام حسن صحيح على أنه قد روي له شاهد عن عبد الله بن مسعود ". وضعفه الألبانى فى تعليقه على سنن الترمذى.

وما أخرجه سعيد بن منصور عن ابن مسعود (رضي الله عنه) أنه قال: " من أراد العلم فعليه بالقرآن فإن فيه خبر الأولين والآخرين" (1).

٣) وقالوا: إن الله (تعالى) ملأ كتابه من الاستدلال على العلم والقدرة والحكمة بأحوال السموات والأرض، وتعاقب الليل والنهار، وكيفية أحوال الضياء والظلام، وأحوال الشمس والقمر والنجوم، وذكر هذه الأمور في أكثر السور وكررها مرة بعد أخرى، فلو لم يكن البحث عنها والتأمل في أحوالها جائزًا لما ملأ الله كتابه منها.

٤) أن العلم الحديث قد يكون ضرورياً لفهم بعض المعاني القرآنية، وليس هناك ما يمنع من أن يكون فهم بعض الآيات فهمًا دقيقًا متوقفًا على تقدم بعض العلوم، فتكون الحقيقة العلمية من قواعد الترجيح في التفسير إذا كان للآية أكثر من معنى؛ فيتعين أن يؤخذ بالمعنى الذي تؤيده الحقائق العلمية.

٥) تحقق فوائد كثيرة ومنافع كبيرة من التفسير العلمي، منها:

أ) إدراك وجوه جديدة للإعجاز في القرآن الكريم، بإثبات التوافق بين حقائق القرآن الكريم وحقائق العلم.

ب) استمالة غير المسلمين إلى الإسلام وإقناعهم به ببيان إعجاز القرآن العلمي، وإقامة الحجة عليهم بذلك.

جـ) امتلاء النفوس إيماناً بعظمة الله جل جلاله وعظيم سلطانه وقدرته، بعد الوقوف على أسرار الكون التي كشفها القرآن.

المعارضون للتفسير العلمي:

ومن المعارضين للتفسير العلمي أبو حيان، والشاطبي، ومحمود شلتوت، وأمين الخولي، وسيد قطب وغيرهم.

---

(١) الإتقان فى علوم القرآن للسيوطى ٢ / ١٢٦.

من أدلة المعارضين:

واستدل المعارضون للتفسير العلمي بأدلة، منها:

١) أن للتفسير شروطًا قررها العلماء ينبغي الالتزام بها؛ فلا يكون تفسير القرآن مباحًا لكل من حصل علمًا من العلوم وغابت عنه علوم أخرى لابد منها للمفسر. ومن ذلك عدم تحميل ألفاظ القرآن معاني وإطلاقات لم توضع لها ولم تستعمل فيها.

٢) أن القرآن الكريم كتاب هداية وليس بكتاب تفصيل لمسائل العلوم ونظرياته ودقائق الاكتشافات والمعارف، ومن طلب ذلك من القرآن فقد أساء فهم طبيعة هذا القرآن ووظيفته.

٣) أن التفسير العلمي مدعاة إلى الزلل لدى أكثر الذين خاضوا فيه من المعاصرين؛ لأن عملية التوفيق تفترض غالبًا محاولة للجمع بين موقفين يتوهم أنهما متعاديان ولا عداء، أو يظن أنهما متلاقيان ولا لقاء.

٤) أن تناول القرآن بهذا المنهج يضطر المفسر إلى مجاوزة الحدود التي تحتملها ألفاظ النص القرآني، لأنه يحس بضرورة متابعة العلم في مجالاته المختلفة فيتعجل تلمس المطابقة بين القرآن والعلم تعجلًا غير مشروع.

٥) أن ما يكشف من العلوم إنما هو نظريات وفروض قابلة دائمًا للتغيير، والتعديل، والنقض، والإضافة، بل قابلة لأن تنقلب رأسًا على عقب، ومن ثم فلا يصح أن نعلق الحقائق القرآنية النهائية بمثل تلك النظريات حتى لا نقف محرجين عند ثبوت بطلان تلك النظرية.

*** الرأي المختار:**

قبل أن نذكر ما نراه صوابًا يجب أن نذكر حقيقة ينبغي إدراكها، وهي: التفريق بين التفسير العلمي والإعجاز العلمي. فالأول هو مثار البحث والمناقشة وأما الثاني فقضية مسلمة لا نزاع فيها.

ذلكم أن المؤيدين للتفسير العلمي والمعارضين له أيضًا كلهم بلا استثناء يقرون ويعترفون أن القرآن الكريم لم ولن يصادم حقيقة علمية.

لم يقولوا هذا عن عاطفة مجردة، ولم يقله أتباع القرآن فحسب، وإنما قاله أولئك، وقاله خصومه أيضًا، بعد أن تناولوا آيات عديدة منه، وقلبوها دراسة وتأملاً وتدبرًا، ونظروا فيما بين أيديهم من النظريات والحقائق العلمية حتى انتهوا إلى ما انتهوا إليه.

قال الدكتور زغلول النجار مفرقاً بين التفسير العلمي والإعجاز العلمي: (إن التفسير العلمي للقرآن الكريم يقصد به أن يوظف أهل كل جيل كل المعارف المتاحة لهم في حسن فهم دلالة القرآن الكريم) ويزيد كلامه وضوحا فيقول: (في مجال التفسير العلمي لا يتردد الإنسان أن يوظف كل المعارف المتاحة، الثابت منها وغير الثابت، لأن التفسير يبقى جهداً إنسانياً يصيب الإنسان فيه ويخطئ، وخطأ الإنسان في التفسير لا ينسحب على جلال القرآن الكريم، بل ينسحب على المفسر، لذلك لابد لنا من توظيف كل المعارف المتاحة لحسن فهم دلالة الآيات القرآنية– طبعا بعد التأهل للقيام بهذه المسؤولية الخطيرة – وهى التعرض لكلام الله، وهذا التأهل يقتضي فهماً للغة العربية وقواعدها وأسرارها، وفهماً لأسباب النزول، وفهما للناسخ والمنسوخ، وفهما للمأثور من تفسير رسول الله ﷺ، لذلك لا بد أن ينفر من كل جيل نفر من الناس يتأهلون لهذه العدة، ويعرضون فهماً جديداً للآيات القرآنية، خاصة في مجال القضايا العلمية، والقضايا الكونية، بحيث لا يعتمد على التفسيرات القديمة فقط، ولذلك أقول:إن التفسير العلمي للقرآن الكريم لا نخاف أن نوظف فيه كل المعارف المتاحة من نظريات فروض– حقائق علمية قطعية– القوانين، فكل هذا يوظف) إلى أن يقول:

(أما بالنسبة للإعجاز العلمي، فلا يجوز لنا أن نوظف فيه إلا الحقائق العلمية القاطعة، لأن الإعجاز نريد به أن نثبت للناس – مسلمين وغير مسلمين – أن هذا القرآن العظيم الذي نزل على نبي أمي في أمة أمية قبل ١٤٠٠سنة يحتوي من حقائق هذا الكون على ما لم يستطع الإنسان أن يتوصل إلى معرفته إلا بعد جهود مضنية وقبل عشرات السنين فقط) [١].

وقد يحسب أحد أن السلامة من مصادمة الحقائق العلمية أمر هين فما على المتكلم إلا أن يتجنب الخوض في مجالاتها، ويحذر من الوقوع في مبهمات العلوم، وغوامض المعارف، وأسرار الكون وخفايا العلم وبذا يظفر بهذه السمة.

والأمر حق لو كان القرآن سلك هذا المسلك لكنه وقد أنزل قبل أربعة عشر قرنًا من الزمن عرض لكثير من مظاهر هذا الكون كخلق السموات والأرض وخلق الإنسان، وسوق السحب وتراكمه، ونزول المطر، وجريان الشمس، وتحدث عن القمر والنجوم والشهب وأطوار الجنين. وعن النبات والبحار، وغير ذلك كثير؛ ومع ذلك كله لم يسقط العلم كلمة من كلماته، ولم يصادم جزئية من جزئياته، فإذا كان الأمر كذلك فإن هذا بحد ذاته يعتبر إعجازًا علميًّا للقرآن حتى ولو لم يتم الربط بين الآية والاكتشاف العلمي الحديث.

وهذا أمر يدركه ويقره كل العلماء، فالإعجاز العلمي في القرآن متحقق مدرك لا خلاف فيه.

ثم انقسم العلماء بعد ذلك إلى قسمين، فمنهم من قال: ما دام الإعجاز العلمي متحققًا في القرآن وثابتًا فما علينا أن نطبقه بين آياته واحدة واحدة وبين الحقائق العلمية واحدة واحدة. وامتنعت طائفة أخرى عن تطبيقه لا خوفًا عليه من النقض

---

(١) انظر: مجلة (العلميون) عدد يونيو سنة ١٩٩٧ صـــ٤٨، نقلاً عن عناية المسلمين صـــ٣٠٤، ٣٠٥.

وليس لخشية على حقائقه، ولكن لعدم الثقة في مداركنا نحن البشر، فقد نحسب نظرية علمية حقيقة علمية فما تلبث إلا قليلاً حتى تتقوض بعد رسوخ، وتتزعزع بعد ثبوت، ولات حين مناص نقع في الحرج الشديد فيكذب القرآن وهو الصادق فتكون البلية، فالعيب والنقص في مداركنا وليس في حقائق القرآن.

وبهذا تدرك أن الجميع يقول بالإعجاز العلمي في القرآن، لكن منهم من قال بجواز التفسير العلمي ومنهم من منعه، والذي نراه صوابًا هو الوسط بين الفريقين.

فلا رفض ولا إنكار للتفسير العلمي يمنع من إدراك وجوه الإعجاز الجديدة، ويدفع مزاعم القائلين بالعداوة بين الدين والعلم، ويمنع من استمالة غير المسلمين، أو يحث على الانتفاع بقوى الكون.

ولا تسليم مطلق للتفسير العلمي لأن إعجاز القرآن ثابت وغني عن أن يسلك في بيانه هذا المسلك، كما أن الدعوة إلى النظر في الكون دعوة لمواضع العبرة والعظة وليس بالضرورة إلى بيان دقائقها وكشف علومها، ولأن التفسير العلمي مدعاة إلى الزلل لدى أكثر الذين خاضوا فيه، وأن تناول القرآن بهذا المنهج يضطر المفسر إلى مجاوزة الحدود التي تحتملها ألفاظ القرآن ويحملها ما لا تحتمل، فضلاً عن أن ما يكشف من العلوم إنما هو فروض ونظريات قابلة دائمًا للتغيير والتعديل والنقص والإضافة.

إذًا فلا رفض مطلق ولا قبول مطلق، بل وسط بين طرفين، وجمع بين حقيقتين، حقيقة قرآنية ثابتة بالنص الذي لا يقبل الشك، وحقيقة علمية ثابتة بالتجربة والمشاهدة القطعيين.

لهذا فلا بأس من إيراد الحقائق العلمية الثابتة في تفسير القرآن بشرط:

١) ألا تطغى تلك المباحث على المقصود الأول من القرآن وهو الهداية، (ذلكم أن القرآن الكريم في الأساس كتاب هداية، أنزله الله تعالى لإخراج الناس من الظلمات إلى النور: ﴿ **إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ..** ﴾ [الإسراء:٩]، ﴿ **كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ** ﴾ [إبراهيم: ١].

تلك هي مهمة القرآن الأصلية، وقد وضحت سبل الهداية فيه: في عقائده وتشريعاته، وكانت مظاهر القدرة في الآيات الكونية وسيلة من وسائل الاحتجاج للحق الذي جاء به.

فالقرآن – والأمر كذلك – ليس كتاباً في العلوم التطبيقية مثل الطب أو الفيزياء أو الفلك أو الهندسة أو الزراعة أو التعدين ونحوها، وإنما هو دستور للهدى والحق، ولكنه مع ذلك يتضمن في سياق آياته وفي رسم طريق الهداية للبشر من المعارف فيما سيق من العلوم بطريق التبع حقائق تدهش أهل التخصص في تلك العلوم، فيستقر في عقولهم من جراء ذلك ما يرسخ يقينهم، ويثبت إيمانهم إن كانوا مؤمنين أصلاً، أو يقيم الدليل عندهم على حق كانوا في شك فيه – وهو صدق القرآن – إن كانوا غير مؤمنين، فيهتدون إلى الإسلام، وبذلك يتحقق المقصود النهائي من القرآن وهو الهداية – كما أسلفنا– أو تقوم الحجة عليهم في هذا الباب كما قامت في غيره من أبواب أخرى إن ظلوا على كفرهم مقيمين) [(١)].

٢) أن تذكر تلك العلوم لأجل تعميق الشعور الديني لدى المسلم، والدفاع عن العقيدة ضد أعدائها.

٣) أن تذكر على وجه يدفع المسلمين إلى النهضة العلمية.

---

(١) عناية المسلمين، د / جبريل صـــ٣٠٦، ٣٠٧.

٤) أن لا تذكر هذه الأبحاث على أنها هي التفسير الذي لا يدل النص القرآني على سواه، بل تذكر لتوسيع المدلول، وللاستشهاد بها على وجه لا يؤثر بطلانها فيما بعد على قداسة النص القرآني؛ وذلك بأن يصوغ المفسر عبارته بطريقة تفهم بأن ما قاله إنما هو فهمه من الآيات، الذي استطاع أن يتوصل إليه بعد أخذه بأدوات التفسير التي تؤهله لذلك، فلا يقطع بأن ما فهمه من الآية هو مراد الله تعالى منها، ذلك أن تفسير النص القرآني بنظرية قابلة للتغيير والإبطال يثير الشكوك حول الحقائق القرآنية في أذهان الناس كلما تعرضت نظرية للرد أو البطلان.

٥) عدم حصر دلالة ومفهوم الآية على حقيقة واحدة، فلكل كلمة دلالات لغوية حقيقية ومجازية استعملها العرب فيها، فلو فرض أن حقيقة علمية أيدت إحدى هذه الدلالات، فلا مانع حينئذ أن نرجح هذه الدلالة التى دعمتها الحقيقة العلمية، بشرط ألا نحكم بالفساد على الدلالات المرجحة من جهات أخرى، فقد تكون الحقيقة العلمية التى رجحنا بناءً عليها هذه الدلالة إحدى أوجه دلالات الآية، ومعانيها ممتدة إلى حقائق أخرى لم نتوصل إليها حسب علمنا، إلا أن التقدم العلمى كفيل أن يكشف الستار عنها.

فإذا تحققت هذه الشروط فلا مانع من إيراد الحقائق العلمية في كتب التفسير. والله أعلم.

أمثلة للتفسير العلمي:

والأمثلة على الحقائق العلمية والآيات القرآنية التي توافقها ولا تخالفها كثيرة ليس بوسعنا أن نوردها بالتفصيل بل نذكر الآية وما تشير إليه بإيجاز شديد، ومن أراد التوسع فدونه كتب الإعجاز العلمي [1]:

ومنها المؤلفات التالية:

١- الجواهر في تفسير القرآن الكريم: طنطاوي جوهري.

٢- كشف الأسرار النورانية القرآنية: محمد بن أحمد الإسكندراني.

٣- القرآن ينبوع العلوم والعرفان: علي فكري.

٤- ما دل عليه القرآن مما يعضد الهيئة الجديدة القويمة البرهان: محمود شكري الألوسي.

٥- التفسير العلمي للآيات الكونية في القرآن: حنفي أحمد.

والمؤلفات في ذلك كثيرة جدًّا، وهناك محاضرات وأفلام على هذا النحو، كما أنشأت في المملكة العربية السعودية هيئة للإعجاز العلمي في القرآن والسنة فى إطار رابطة العالم الإسلامى فى مكة المكرمة، وقد أصدرت كثيراً من الكتب في هذا المجال منها: علم الأجنة في ضوء الكتاب والسنة، المصب والحواجز بين البحار في القرآن الكريم، تأصيل الإعجاز العلمي في القرآن والسنة، أوجه الإعجاز العلمي في القرآن والسنة في ١-عالم النحل. ٢- اللبن. ٣- الحبة السوداء. ٤-علم الأجنة في ضوء القرآن والسنة " باللغة الإنجليزية "، ٥- المفهوم الجيولوجي للجبال في القرآن والسنة "باللغة الإنجليزية"، ٦- إعجاز القرآن الكريم في وصف

---

(١) انظر: دراسات فى علوم القرآن، د/ الرومى صـــ٢٩٧، ونهاية كتاب من أوجه الإعجاز العلمى للقرآن الكريم فى عالم النبات، د / قطب فرغلى، د/السيد زيدان، من إصدارات الهيئة، ط١/ ١٤١٧هـــ.

أنواع: الرياح، والسحب، والمطر، ٧- تأملات في الإعجاز العلمي في القرآن والسنة حول: الإنسان في الارتفاعات العالية، الإحساس بالألم، ٨- الإعجاز العلمي في آيات السمع والبصر في القرآن الكريم،٩- من أوجه الإعجاز العلمي للقرآن الكريم في عالم البحار، إلى غير ذلك من الكتب، والأشرطة المرئية.

١) في قوله تعالى: ﴿ **هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا** ﴾ [يونس: ٥] تفريق بين الشمس والقمر ثم أدركه العلماء بعد ذلك.

٢) في قوله تعالى: ﴿ **أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ مِهَادًا. وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا** ﴾ [النبأ ٧، ٨] إشارة إلى شكل الجبل الظاهر والباطن، وأدركه العلماء بعد ذلك.

٣) في قوله تعالى: ﴿ **ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ** ﴾ [المؤمنون: ١٤] إشارة إلى مراحل خلق الإنسان في الرحم ولم يدركها العلماء إلا في العصور الحديثة.

٤) في قوله تعالى: ﴿ **فَلْيَنْظُرِ الإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ. خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ. يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ** ﴾ [الطارق: ٥ – ٧] إشارة إلى موضع تكوُّن النطفة وهو أمر لم يدركه العلماء إلا حديثًا.

٥) في قوله تعالى: ﴿ **بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ** ﴾ [القيامة: ٤] في تخصيص البنان بالذكر صفة تميزه عن غيره من أعضاء الجسم، لم يكتشفها العلم إلا حديثًا، وهو علم البصمات.

٦) في قوله تعالى: ﴿ **كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ** ﴾ [النساء: ٥٦] إشارة إلى مركز الإحساس بالألم في الإنسان وهو الجلد.

٧) في قوله تعالى: ﴿ **فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ** ﴾ [الأنعام:

١٢٥] إشارة إلى ضيق صدر من يصعد إلى السماء، وهو أمر لم يكتشفه العلم إلا حديثًا، حيث يقل الأوكسجين وينخفض الضغط.

٨) وفي قوله تعالى: ﴿ **فَلا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ. وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ** ﴾ [الواقعة: ٧٥، ٧٦] إشارة إلى ما اكتشف العلم الحديث بعضه من عظمة هذا الكون واتساعه، الذي يقصر عن إدراكه إنسان.

٩) وفي قوله تعالى: ﴿ **وَإِنَّ لَكُمْ فِي الأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ** ﴾ [النحل: ٦٦] إشارة إلى ما كان مجهولاً من تحديد مصدر اللبن في الأنعام.

١٠) وفي قوله تعالى: ﴿ **أَيَحْسَبُ الإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدىً. أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى** ﴾ [القيامة: ٣٦، ٣٧] إشارة إلى أن الإنسان يخلق من جزء ضئيل جدًّا "نطفة" من المني، وهذا ما كشفه العلم الحديث.

وسبحان الذي أحاط بكل شيء علمًا.

****

المبحث السادس
الإعجاز الغيبى

وذلك أن القرآن الكريم تضمن عددًا من الأخبار الغيبية في الماضي والحاضر والمستقبل؛ وإذا علمنا أن الرسول ﷺ كان أميًّا لا يقرأ ولا يكتب، وعلمنا أن أمته أمة أمية لا تقرأ ولا تكتب، وليس عندها علم يذكر في تاريخ الأمم الماضية، ومع هذا كله فقد ورد في القرآن الكريم الحديث عن الأمم الماضية، بما يظهر أن هذا القرآن لا يمكن أن يكون إلا من عند الله الذي يعلم الغيب في السموات والأرض، وتحدث عن قصص عن الحاضر الذى لا سبيل إلى رؤيته ومعرفته فضلاً عن التحدث به، وتحدث عن المستقبل الغامض الذى انقطعت دونه الأسباب، وقصرت عن إدراكه الفراسة والذكاء.

قال الزرقانى: (وسر الإعجاز في ذلك كله أنه وقع كما حدث وما تخلف، وجاء على النحو الذي أخبر به في إجمال ما أجمل وتفصيل ما فصل، وأنه إن أخبر عن غيب الماضي صدقه ما شهد به التاريخ، وإن أخبر عن غيب الحاضر صدقه ما جاء به الأنبياء، وما يجد في العالم من تجارب وعلوم، وإن أخبر عن غيب المستقبل صدقه ما تلده الليالي وما تجيء به الأيام) (١). وعلى ذلك فالأخبار الغيبية الواردة فى القرآن ثلاثة أنواع، هى:

الأول: الأخبار الغيبية الماضية " غيب الماضى ":

قد حفل القرآن بأخبار السابقين الأولين من الرسل مع أقوامهم، ومن غير الرسل، فجاء فيه قصص: آدم، ونوح، وإبراهيم، وهود، وصالح، وشعيب، ولوط، وموسى، ويحيى، وزكريا، وعيسى وغيرهم عليهم جميعاً الصلاة والسلام، كما جاء

---

(١) مناهل العرفان ٢ / ٣٦٧.

فيه قصص: ابني آدم، وأصحاب الكهف، وأصحاب السبت، وأصحاب الجنة، وأصحاب الأخدود، ولقمان، وقارون وغيرهم.

(وأنباء الماضي في كتاب الله كثيرة تتمثل في القصص الرائع الهادف عن سيد المرسلين، ومناهج المؤمنين، ومواقف أعداء الرسل الكافرين، فتجد لعرضه الحوادث من الجاذبية والتشويق ما يمسك بتلابيب الفؤاد؛ فتتزاحم عندك من المواعظ والعبر، فتثير المشاعر وترتسم على صفحة الوجدان، وتفتح الأعين على حقائق الهدى والإيمان، وتحمل على التأسى والاقتداء فى العمل والامتناع) (١).

ولما كانت القسمة العقلية فى معرفة الأحداث والوقائع وأخبارها فى القرآن بالنسبة لرسول الله ﷺ – وهو الذى جاء قومه بذلك – تقتضي واحداً من أربعة فروض، فإن تحقيق هذا الوجه من الإعجاز يقتضى عرض هذه الفروض على واقع الرسول ﷺ ليتبين أن ما جاء به من وحى الله تعالى:

الفرض الأول: حضوره ﷺ ومشاهدته أحداث هذه القصص، وإخباره بذلك عن معاينة، وذلك مردود بالواقع والتاريخ بداهة، وعلى الرغم من ذلك لفت القرآن النظر إلى ذلك فى أكثر من موضع، ففي قصة مريم يقول الله تعالى: ﴿ **ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ** ﴾ [آل عمران: ٤٤]، وفى قصة يوسف (عليه السلام) يقول: ﴿ **ذَلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ** ﴾ [يوسف: ١٠٢]، وفى قصة موسى (عليه السلام) يقول: ﴿ **وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْماً مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ** ﴾ [القصص: ٤٦].

---

(١) انظر: المعجزة الخالدة، د / حسن عتر صـــ٢٨٠، مكتبة الرشد بالرياض.

الفرض الثاني: أن يكون النبي ﷺ قد قرأ هذه القصص، وعرف أخبارها من مصادر مكتوبة، ثم نقلها إلى القرآن، وذلك مردود بأنه كان أميا لا يقرأ ولا يكتب، وتلك حقيقة عرفها العرب، كما سجلها القرآن واحتج بها عليهم: ﴿ **وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلاَ تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذاً لاَّرْتَابَ الْمُبْطِلُونَ** ﴾ [العنكبوت: ٤٨].

الفرض الثالث: أن يكون قد تعلمها تلقيا ومشافهة عن غيره، وذلك مردود بأنه لم يعرف عنه ﷺ أنه جلس إلى معلم أو تلقى عن أحد، ولما حاول المشركون ادعاء ذلك عليه ﷺ وقعوا في عثرة عُمُرِهم، وسوءة فعلهم، فد فضحهم القرآن إذ نسبوا تعليمه إلى حداد رومي لا يدرى شيئاً عن أخبار السابقين، ولا يعرف شيئاً عن فصاحة العربية وبلاغتها: ﴿ **وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ** ﴾ [النحل: ١٠٣].

لم يبق إلا الفرض الرابع والأخير – وهو الحق الذي لا معدل عنه – وهو أن النبي ﷺ قد أوحى الله إليه بها في جملة ما أوحى إليه من القرآن، فهي حق من حق كما وصفها الله تعالى في أكثر من موضع: ﴿ **إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ** ﴾ [آل عمران: ٦٢]، ﴿ **نَتْلُو عَلَيْكَ مِن نَّبَأِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ** ﴾ [القصص: ٣]، ﴿ **نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ...** ﴾ [الكهف: ١٣].

فإذا أضفنا إلى ذلك أن كثيراً من قصص القرآن قد سبق ذكره في كتب أهل الكتاب من التوراة والإنجيل، وأن أحداً من هؤلاء لم يستطع أن يطعن في حقيقة من حقائق القصص القرآني – بل القرآن هو الذي صوّب لهم– عرفنا يقينا، وقامت

الحجة وألزمت الجميع أن هذا القصص بما جاء فيه كله وحى من عند الله (عز وجل) [1].

الثاني: الأخبار الغيبية عما يقع بغير حضرة الرسول ﷺ "غيب الحاضر ".

إذ كثيرًا ما تحدث بعض الأحداث ولا يشهدها الرسول ﷺ؛ ومع هذا ينزل عليه الوحي حتى قبل أن يصل أحد ممن رآها إلى الرسول ﷺ؛ حتى كان الكفار يقول بعضهم لبعض: اخفضوا أصواتكم حتى لا يسمعكم إله محمد، ولهذا كان المنافقون يحذرون ذلك، قال تعالى: ﴿ **يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ** ﴾ [التوبة: ٦٤].

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ **يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلامِهِمْ** ﴾ [التوبة: ٧٤]، وكقوله تعالى عن المنافقين: ﴿ **وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلا الْحُسْنَى وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ** ﴾ [التوبة: ١٠٧]، وفى سورة التوبة وغيرها من هذا القبيل الكثير والكثير من الأخبار عنهم.

ويزيد الزرقانى على ذلك فيقول: (أما غيب الحاضر فنريد به ما يتصل بالله تعالى والملائكة والجن والجنّة والنار، ونحو ذلك، مما لم يكن للرسول ﷺ سبيل إلى رؤيته ولا العلم به، فضلاً عن أن يتحدث عنه على هذا الوجه الواضح، الذى أيده ما جاء به الأنبياء وكتبهم عليهم الصلاة والسلام) [2].

---

(١) انظر: عناية المسلمين، د / محمد جبريل صـــ٢٩٠، ٢٩١.

(٢) مناهل العرفان ٢ / ٣٦٨، وانظر: دراسات فى علوم القرآن صـــ٢٧٦.

الثالث: الأخبار الغيبية عن أمور مستقبلة "غيب المستقبل ".

كثيرًا ما أخبر القرآن عن أمور ستحدث في المستقبل ووقعت كما جاءت في القرآن، لم تتخلف أو تتغير، وهذا ما لا سبيل للبشر إليه بحال، وهذا فى القرآن كثير، سأضرب عليه أمثلة تكون شاهداً لما عداها (١):

المثال الأول: ما جاء فى معرض التحدى بالقرآن، من قوله سبحانه: ﴿ **قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا** ﴾ [الإسراء: ٨٨]، وقوله تعالى: ﴿ **وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ. فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ** ﴾ [البقرة: ٢٣، ٢٤] فإن ما نراه في هاتين الآيتين من القطع بانتفاء قدرة المخاطبين والثقلين على أن يأتوا بمثل القرآن قد تناول أطواء المستقبل، وهو غيب لا يملكه مخلوق، ومع ذلك فقد تحققت نبوءة القرآن ولا تزال، فلم يستطع عربى – فضلاً عن أعجمى – أن يقوم بهذا التحدى ويأتى بسورة من مثله،مع وجود أعداء للإسلام في هذه العصور المتأخرة أكثر وأقدر وأحرص على هدم بناء هذا الدين من أولئك الأعداء الأولين.

المثال الثانى: تنبؤ القرآن بأن المستقبل السعيد ينتظر المسلمين في وقت لم تكن عوامل هذا المستقبل السعيد مواتية، ثم إذا تأويل هذه النبوءة يأتي على نحو ما أخبر القرآن في أقصر ما يكون من الزمان، قال تعالى في سورة الصافات المكية: ﴿ **وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ** ﴾ [الصافات: ١٧٣]، وفي سورة غافر المكية أيضاً: ﴿ **إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ** ﴾ [غافر: ٥١]، وفي سورة النور: ﴿ **وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ**

---

(١) انظر: مناهل العرفان للزرقانى ٢ / ٣٦٩ وما بعدها.

لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ [النور: ٥٥] على حين أن سجلات التاريخ لا تزال تحفظ ما يشيب الوليد من ألوان الأذى الذي أصاب المسلمين على عهد نزول هذه الوعود الكريمة، حتى لقد كان أكبر أماني المسلمين بعد هجرتهم أن يسلم لهم دينهم ويعيشوا آمنين، يدل على ذلك ما ورد عن أبي بن كعب قال: لما قدم رسول الله ﷺ وأصحابه المدينة وآوتهم الأنصار، رمتهم العرب عن قوس واحدة، وكانوا لا يبيتون إلا بالسلاح ولا يصبحون إلا فيه، فقالوا: أترون أنا نعيش حتى نبيت آمنين مطمئنين لا نخاف إلا الله، فنزلت الآية [(١)]، هكذا كان حال الصحابة أيام أن وعدهم الله ما وعد، وما أعجل تحقق هذا الوعد الإلهي رغم هذه الحال المنافية في العادة لما وعد، فدالت الدولة لهم، واستخلفهم في أقطار الأرض، وأورثهم ملك كسرى وقيصر، ومكن لهم دينهم الذي ارتضى لهم، وأبدلهم من بعد خوفهم أمنا، فى وقت يسير كما هو معروف فى تاريخ الإسلام، ونسأل الله تعالى أن يعيد هذا التمكين وأن يعز الإسلام وأهله.

المثال الثالث: إخباره بعدم تمني اليهود الموت، وذلك في قول الله تعالى: ﴿ **قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ. وَلا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ** ﴾ [الجمعة: ٦-٧] وذلك متحقق دوما، فلم يحدث- ولن يحدث- أن تمنى يهودي الموت- ولو ادعاءً - مناقضة للقرآن. والأمثلة أكثر من أن تحصى في هذا المقام.

---

(١) أخرجه الحاكم فى المستدرك ٤٣٤/٢ وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبى.

وبعد ما ذكرنا فإن لنا تعقيباً وبياناً نسوقه فيما يلي:

أ) المقصود من هذا الوجه من وجوه الإعجاز هو إثبات أن القرآن وحي من عند الله تعالى باعتبار ذلك دليلاً لا يقبل الجدل، إذ ليس في مقدور أحد من البشر أن يتنبأ بشيء فيصدق كما قال تماماً، ولو حدث ذلك مرة أو مرات على سبيل الافتراض، فإن ذلك لا يمكن أن يكون أمراً دائماً مطرداً.

ب) أن هذا الوجه دليل إعجاز للقرآن في مجمله، بمعنى أنه قد يوجد في بعض السور ولا يوجد في الكثير منها، فهو من علامات الإعجاز التي يوصف بها القرآن بوصفه وحياً، وليس من خصائص ألفاظه، وبهذا التفسير لا يمكن المماراة في هذا الوجه بأن يقال: إن العرب معذورون إذا قالوا: إننا قادرون على معارضة القرآن متمكنون من الإتيان بمثله غير أنه يشتمل على ما لا يمكن معرفته، ومن ثمَّ الإتيان بمثله.

وبالجملة، فإنه دليل إعجاز، ولكن لا يستقل بالغرض في إثبات إعجاز القرآن، فهو ليس بالأمر العام في كل سورة من سور القرآن، وعليه فإن موطن التحدي هنا إذا قلنا به مقدمة للإعجاز إنما يواجه به من ادعى أن القرآن من عند محمد ﷺ (١).

وبهذا الوجه من الإعجاز أنهى الحديث عن وجوه إعجاز القرآن الكريم، وقبل أن أضع عصا التسيار أنتقل إلى ذكر مركز لخلاصة البحث وحصاد الذهاب والإياب فى خاتمة المطاف – أسأل الله تعالى حسنها – فانظرها فى الصفحات التالية:

(١) انظر: عناية المسلمين، د / محمد جبريل صـــ٢٨٩.

الخاتمة

هذا، ولا أدعى فى هذا البحث الاستيعاب وتناول كل ما يتعلق بوجوه إعجاز القرآن الكريم، إذ لم يكن من خطة هذه الدراسة أن تتناول كل ما يتعلــق بوجــوه إعجاز القرآن الكريم من شاذة وفاذة، وإنما صورة الأمر كما قيــل: " يكفــى مــن القلادة ما أحاط بالعنق"، ولقد كان أهم ما هدفت إليه هذه الدراسة أن تبرز بمجموعها النقاط التالية:

١) إعجاز القرآن من تحداهم عن الإتيان بمثله ليس أمراً مقصوداً لذاته، وإنما المقصود اللازم الناتج عن هذا العجز، وهو إثبات أن القرآن الكريم حق، ووحى من عند الله تعالى، ومقتضى ذلك إثبات صدق الرسول ﷺ فيما جاء به من الرسالة، ودعا إليه من الإسلام.

٢) أعجز القرآن أهل اللغة والبيان عن أن يأتوا بمثله، فى عصر نزول القرآن، وهو أزهى عصور البيان العربى، وأرقى أدوار التهذيب اللغوى، لقد سلكوا مع الرسول ﷺ كل سبيل للتوقف عن دعوته،وأعرضوا كل الإعراض عن الطريق الوحيد الذي عرضه عليهم الرسول ﷺ لإبطال دعوته، وهو أن يأتوا بمثل هذا القرآن، فوجدوا أن كل سبيل أهون من هذا السبيل، وكل مشقة دون هذا المطلب، فأي شيء يكون العجز إن لم يكن هذا هو العجز كل العجز، ولئن عجز الجيل الأول وهم أهل اللغة فإن من بعدهم أعجز ؟ فالإعجاز مستمر والتحدى قائم إلى يوم القيامة، وهو متعلق بقليل القرآن وكثيره على حد سواء، فالتحدى بجنس القرآن لا بالمقدار.

٣) تنبيه العلماء قديماً وحديثاً إلى أن العناية بإبراز وجوه إعجاز القرآن من أكثر الأمور ضرورة، وهو واجب شرعاً، حيث إن القرآن الكريم جاء هدى للناس، والاهتداء به فرع من فهم معانيه، وأنه لما كان قد نزل بلسان عربي مبين،

فإن تفسيره لابد له من معرفة تامة بالعربية وخصائصها، ودلالات ألفاظها، وأوجه بلاغتها، وذلك من علم الإعجاز، ولذا تكلم فيه المفسرون، وبلغاء الأدباء والمتأنقون.

٤) إجماع أهل العلم المعتد بإجماعهم والذي ارتضته الأمة منهم منعقد على أن القرآن الكريم معجز بذاته، أي: بلفظه الذي نــزل به جبريل على الرسول ﷺ وهو ما يتعلق من بين أوجه الإعجاز بالناحية اللغوية ابتداء– نظمه البديع، وفصاحة ألفاظه، وبلاغة معانيه – مع ما تضمنه القرآن من أوجه أخرى ترجع إلى ذاته لفظاً ومعنى، كإعجازه التشريعى والنفسى والعلمى وغير ذلك.

وهناك من خالف هذا الإجماع فذهب إلى أن وجه إعجازه فى الحيلولة بين العرب وبين معارضته، ولو خلى بينهم وبينه لأتوا بمثله فى بلاغته، وأول من ابتدع القول بالصرفة النظام (ت ٢٣١ هــ)، وهو قول ساقط بذاته عند أدنى تأمل حيث يسلب القرآن إعجازه الذاتى، وهو من الخطورة حيث يترتب عليه فقد أهم دلائل صدق النبى ﷺ.

غير أن هذا القول فى ذاته بما يحمله من دلائل بطلانه قد كان سبباً فى استنهاض همم العلماء للكتابة فى أوجه إعجاز القرآن المتعددة.

(٥) الإعجاز اللغوى للقرآن الكريم هو أبرز وجوه الإعجاز وأظهرها، إذ هو المطابق لأحوال العرب وقت نزول القرآن، ولقد أدرك القوم أول ما أدركوا إعجازه اللغوى، فملك منهم الألباب، واستولى على الأفئدة، فانقطعوا عن معارضته، فكان ذلك دليلاً على أنه بلغ حداً فى البلاغة والفصاحة لا يستطيعه بشر، فانتهوا بفطرهم إلى أنه لا طاقة لهم بمثله، فاستيئسوا من معارضته، وقد كانوا من علو الهمة ورجاحة الرأي بحيث لا يعرضون أنفسهم للافتضاح، ولا

يرضون لأنفسهم بالانتقاص، لذلك رأوا أن الإمساك عن المعارضة أحرى بهم وأولى.

٦) تميز القرآن عن سائر الكلام بتأثيره فى النفوس، وجذبه القلوب، لسلامة مبانيه، ودقة معانيه، وعذوبة ألفاظه، وسهولة أسلوبه، وكثرة أعاجيبه، خاطب العقل والميول فتلقاه الناس بالقبول، وهذا ما يسمى بالإعجاز النفسى للقرآن الكريم، فلقد بلغ في تأثيره ونجاحه مبلغاً خرق به العادة في كل ما عرف من كتب الله والناس، وخرج عن المعهود في سنن الله من التأثير بالكلام النافع وغير الكلام، وهذا أمر يدركه كل من قرأ القرآن فى تدبر ونصفه، حاذقاً لأساليبه العربية، ملماً بظروفه وأسباب نزوله، ودوننا التاريخ شاهداً على هذا الإعجاز الذى غير صورة العالم، عن طريق استيلائه على قلوب المخاطبين به لأول مرة استيلاءً أشبه بالقهر وما هو به، يستوى فى ذلك أعداؤه وأنصاره.

٧) من أوجه إعجاز القرآن إعجازه التشريعى، ويراد به ذلكم التشريع الذى جاء به متميزاً بالشمول والكمال والإحكام والإتقان، فهو شامل لكافة أوجه التشريع ما يتعلق بالفرد والمجتمع في العقيدة والعبادة والأخلاق، فى الاجتماع والاقتصاد والسياسة، تشريع كامل لاستيفائه لدقيق المسائل وجليلها، محكم لا نقص فيه ولا عيب، واف بحاجات البشر كلها فى كل عصر ومصر، وفاءً لا تظفر به فى أى تشريع آخر، عجز البشر ولا زالوا عن الإتيان بمثله، فهو أكبر من أن تحيط به العقول في جيل واحد أو في أجيال، فضلاً عن أن يحيط به عقل بشري واحد في جيل واحد.

٨) من أوجه إعجاز القرآن إعجازه العلمى، وهذه قضية مسلمة لا نزاع فيها بين المسلمين وغيرهم، فقد أقر الجميع بأن القرآن لم ولن يصادم حقيقة علمية، وهذا الإقرار لم يصدر عن العلماء التجريبيين إلا بعد أن تناولوا آيات عديدة

من القرآن، وقلبوها دراسة وتأملاً وتدبرًا، ونظروا فيما بين أيديهم من النظريات والحقائق العلمية حتى انتهوا إليه، فهذا القرآن العظيم الذي نـــزل على نبي أمي فى أمة أمية قبل أكثر من ألف وأربعمائة سنة يحتوي على حقائق هذا الكون مما لم يستطع الإنسان أن يتوصل إلى معرفته إلا بعد جهود مضنية وقبل عشرات السنين فقط.

٩) من أوجه إعجاز القرآن أنباء الغيب فيه، وذلك أن القرآن الكريم تضمن عدداً من الأخبار الغيبية فى الماضى والحاضر والمستقبل، وسر الإعجاز في ذلك أنه وقع كما حدث وما تخلف، وجاء على النحو الذي أخبر به في إجمال ما أجمل وتفصيل ما فصل، وأنه إذا أخبر عن غيب الماضي صدقه ما شهد به التاريخ. وإن أخبر عن غيب الحاضر صدقه ما جاء به الأنبياء، وما يجد في العالم من تجارب وعلوم، وإن أخبر عن غيب المستقبل صدقه ما تلده الليالي وما تجيء به الأيام.

وبعد، فتلك أهم المسائل التى حاولت هذه الدراسة إبرازها، والله تعالى أسأل أن يوفقنى فيما قصدت، وأن يسبغ على فضله وإحسانه فيما أحسنت، ويغمرنى بعفوه وغفرانه فيما أسأت وزللت.

والحمد لله رب العالمين، له الحمد فى الأولى والآخرة وله الحكم وإليه ترجعون، سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك.

****

المصادر والمراجع

١) الإتقان فى علوم القرآن، للحافظ جلال الدين السيوطى، تعليق د / مصطفى البغا، ط ١، دار ابن كثير، ١٤٠٧هـ.

٢) إعجاز القرآن، للقاضى أبى بكر الباقلانى، دار إحياء العلوم، بيروت، ط ١ / ١٤٠٨هـ.

٣) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، لمصطفى صادق الرافعى، دار الكتاب العربى، ط ٣ / ١٩٢٨م.

٤) الإعجاز البيانى للقرآن الكريم، د / عائشة عبد الرحمن، دار المعارف، ط / ٢ / ١٩٨٧م.

٥) البرهان فى علوم القرآن، لبدر الدين الزركشى، دار الكتب العلمية، ط ١ / ١٤٠٨هـ.

٦) بلاغة القرآن فى آثار القاضى عبد الجبار وأثره فى الدراسات البلاغية، د / عبد الفتاح لاشين، دار الفكر العربى.

٧) التفسير والمفسرون، د/ محمد حسين الذهبى، دار الكتب الحديثة، ط١/١٣٨١هـ.

٨) ثلاث رسائل فى إعجاز القرآن، للرمانى، والجرجانى، والخطابى، ت / محمد خلف الله، ومحمد زغلول، دار المعارف بمصر، ط ٤ / ١٩٩١م.

٩) الجواهر الحسان فى علوم القرآن، د/ أحمد صيرة، دار الفردوس، بدون.

١٠) جوامع كلم القرآن وشواهد الإعجاز، د/ عبد العزيز السحيبانى، ط / جامعة الإمام ١٤٢٩هـ / ٢٠٠٨م.

١١) خصائص القرآن الكريم، د/ فهد الرومى، دار طيبة، ط٧/١٤١١هـ.

١٢) دراسات فى علوم القرآن الكريم، د / فهد الرومى، مكتبة الرشد بالرياض، ط ١٠ / ١٤٢٢هـ / ٢٠٠١م.
١٣) دلائل الإعجاز، للإمام عبد القاهر الجرجانى، دار المدنى بجدة، ط٣/١٩٩٢م.
١٤) الشفا بتعريف حقوق المصطفى للقاضى عياض، دار التراث بالقاهرة.
١٥) عناية المسلمين بإبراز وجوه الإعجاز فى القرآن الكريم، د / محمد السيد راضى جبريل، بحث منشور فى ندوة عناية المملكة العربية السعودية بالقرآن وعلومه ١٤٢١هـ.
١٦) فتح البارى بشرح صحيح البخارى، للحافظ/ ابن حجر العسقلانى، دار الريان، ط ٢ / ١٤٠٩هـ / ١٩٨٨م.
١٧) القول بالصرفة فى إعجاز القرآن "عرض ونقد"، د/ عبد الرحمن الشهرى، بحث فى مجلة الدراسات القرآنية، تصدر عن الجمعية العلمية السعودية للقرآن وعلومه، بجامعة الإمام ١٤٣٠هـ/ ٢٠٠٩م.
١٨) المعجزة الكبرى، للشيخ محمد أبو زهرة، دار الفكر العربى ١٩٩٨م.
١٩) المغنى فى أبواب العدل والتوحيد، للقاضى عبد الجبار الهمدانى، الجزء ١٦، ت / أمين الخولى، الشركة العربية للطباعة والنشر بالقاهرة ١٣٨٠هـ.
٢٠) مفهوم الإعجاز القرآنى حتى القرن السادس الهجرى، د / أحمد جمال العمرى، دار المعارف ١٩٨٤م.
٢١) مناهل العرفان فى علوم القرآن، للعلامة محمد عبد العظيم الزرقانى، دار إحياء الكتب العربية، بدون.
٢٢) من أوجه الإعجاز العلمى للقرآن فى عالم النبات، د / قطب فرغلى، د / السيد زيدان، هيئة الإعجاز العلمى فى القرآن والسنة، ط١ / ١٤١٧هـ.

٢٣) الموضح عن جهة إعجاز القرآن (الصرفة)، للشريف المرتضى على بن الحسين الموسوى، ت/ محمد رضا الأنصارى القمى، مؤسسة الطبع والنشر التابعة للآستانة الرضوية المقدسة بمشهد إيران، ط ١/ ١٤٢٤هـ.
٢٤) النبأ العظيم، د/ محمد عبد الله دراز، دار القلم بالكويت، ط٤ / ١٣٩٧هـ.

****

فهرس موضوعات البحث